

تأليف
الدكتور عبد العال سالم مكرم
استاذ الدراسات النحوية بجامعة الكويت

إهـــــداء 2005

أ.د./ محمد عثمان نجاتي

القاهرة



الكويت ص.ب ٢١٨٥٧ - الصفاة - تلفون ٤٣٧٤٢٣
تلكس: ٢٤٣٥ تكنو - كويت - برقيا: الدوادو



تأليف

الدكتور/ عبد العال سالم مكرم

استاذ الدراسات النحوية
بجامعة الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذه بحوث قرآنية نشرت في مجلّتي : الفكر الإسلامي ببيروت ، والوعي الإسلامي بالكويت .

وهي بحوث تقوم على دعامتين :

الدعامة الأولى : الدفاع عن كتاب الله تبارك وتعالى ، وذلك بكشف سموم المستشرقين التي يدسّونها في دراساتهم للقرآن الكريم .

والدعامة الثانية : خدمة القرآن الكريم في نشر هذه البحوث ، وتقديمها للقراء للإفادة منها ، وبخاصة طلاب الدراسات القرآنية واللغويـــة .

ولما كانت هذه البحوث متفرقة على صفحات هاتين المجلتين مما يصعب الحصول عليها ، والانتفاع بها ، والرجوع إليها أحببت أن أجمعها في إطار واحد يتمثل في هذا الكتاب ليتسنى للقراء وللطلاب الرجوع اليه ، والإفادة منه لهذا أرجو أن يكون هذا العمل في ميزاني « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم » .

عبد العال سالم مكرم

الكويت

١٣٩٨ ها – ١٩٧٨ م

أدوات المفسّر

أدوات المفسر *

أنا مؤمن بحرية الفكر ، لأن الفكر الذليل لا يكون نتاجه إلا الانحلال والضعف ، والجهل والفوضى .

وأنا مؤمن بحرية الفكر ، لأن الفكر الحر يفتح أبواب المعرفة فتزدهر الحضارة ، وتتقدم الأمم .

وأنا مؤمن بحرية الفكر ، لأن الفكر ثمرة من ثمار العقل ، وهو أعظم نعمة منَّ بها الخالق على الإنسان .

وأنا مؤمن بحرية الفكر ، لأن الإسلام يعتبر الفكر خلية من خلايا تكوينه ولبنة حية في بنائه الشامخ .

وقد تعددت في القرآن الكريم مادة « فكر » ومشتقاتها في ثمانية عشر موضعاً [1]، ولكن هذا الفكر الذي أؤمن به له مجال لا يتعداه ، وحدود لا يتجاوزها وإلا أصبح مارداً خطراً ، يخرب ولا يعمر ، يفسد ولا يصلح ، يهدم ولا يبني . وإنني لا أستطيع أن أقف حجر عثرة في طريق هؤلاء المفكرين الأحرار الذين يحاولون أن يخضعوا كتاب الله للتفسيرات العصرية ، لأن من حقهم أن يفكروا ، وليس تفسير كتاب الله وقفاً على طائفة معينة من الناس ، أو فئة مميزة من العلماء ، ذلك لأن الاسلام دين الحرية ، ودين التفكير ، يحارب التقليد ويتحداه ، ويحتضن العقل ويتبناه .

غير أن حرية التفكير في مجال كتاب الله مقيدة بقيود ، محددة بحدود . فتفسير كتاب الله توضيح لمعانيه ، وتبيان لأحكامه ، وكشف لأسراره وهذا لا يتأتى لكثير من العلماء أو المثقفين .

---

* نشر في مجلة الفكر الاسلامي (بيروت) العدد الثاني ذو الحجة –١٣٩١– فبراير سنة ١٩٧٢ .

(١) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم في مادة : فكر .

ومن أجل هذا الخطأ في التفسير رأينا بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرجون من السير في هذا الطريق الوعر ، فقد تفسر الآية بمعنى غير مراد ، وفي هذا الهلاك الذي ليس بعده هلاك ، فأبو بكر الصديق رضي الله عنه حينما سئل عن قوله تعالى : « وكان الله على كل شيءٍ مقيتا »[١] قال : أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم .

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما قرأ على المنبر « وفاكهة وأباً »[٢] قال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم رجع الى نفسه فقال : لعمرك إن هذا هو التكلف يا عمر[٣].

وقد كان الأصمعي الراوية الكبير يسير على هذا المنهج ، يتحرّجُ من التفسير ، ويخشى خطره مع أنه كما يقول ابن الأنباري : كانت له « يد غراء في اللغة لا يعرف فيها مثله وفي كثرة الرواية »[٤].

يحدثنا ابن الأنباري عن موقف طريف في هذا المجال حدث بين الأصمعي وبين أبي عبيدة معمر بن المثنى . قال التوزي : بلغ أبا عبيدة أن الأصمعي يعيب تأليفه كتاب المجاز[٥] في القرآن الكريم ، وأنه يفسر ذلك برأيه ، فسأل أبو عبيدة عن مجلس الأصمعي في أي يوم هو ؟ فركب حماره ، ومر بحلقة الأصمعي ، فنزل عن حماره وسلم عليه ، وجلس عنده ، وحادثه ثم قال له : يا أبا سعيد ، ما تقول في الخبز ؟ قال الأصمعي : هو الذي تخبزه وتأكله ، فقال له أبو عبيدة : فسرت كتاب الله برأيك ، قال الله تعالى : « إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً »[٦]

فقال له الأصمعي : هذا شيءٌ بان لي فقلته ، ولم أفسره برأيي ، فقال له أبو عبيدة : وهذا الذي تعيبه علينا : كله شيءٌ بان لنا فقلناه ولم نفسره برأينا ،

---

(١) النساء : آية ٨٥ .
(٢) عبس : آية ٣١ .
(٣) مقدمتان في علوم القرآن ص ١٨٣ تحقيق آرثر جفري . مطبعة السنة المحمدية – القاهرة .
(٤) نزهة الألباء ص ٧٦ .
(٥) المجاز لأبي عبيدة طبع بتحقيق الأستاذ محمد فؤاد سزكين .
(٦) يوسف ، آية ٣٦ .

ثم قام فركب حماره وانصرف[1].

ونحن لا نميل إلى رأي الأصمعي في هـذا ، فهو رأي متزمت يقـوم على المبالغة في الحرص ، واتقاء الشبهات . والعـلم لا يزكو ولا يتطـور اذا كان شعاره هذا المنهج الأصمعي .

وفي رأيي أن كل من كملت له أدوات التفسير التي تساعده على أداء مهمته الخطيرة وتأخذ بيده في هذا الطريق الشائك الوعر ليصل إلى مرفأ السلام – من حقه أن يفسر ، ومن حقه أن يجتهد ، ومن حقه أن يدلي بدلوه بين الدلاء فما هي إذن هذه الأدوات ؟ .

١– اتقان اللغة العربية والتبحر فيها :

وهذا الاتقان بطبيعة الحال يقتضي الإلمام بالشعر العربي ، فهو الديوان الذي يرجع اليه ليزيل اللبس ، ويوضح الغامض . والقرآن الكريم نزل بهذه اللغة ليتحدى أرباب القول ، ومن ثم عجزوا عن الإتيان بمثله مع أن لغته ليست غريبة عنهم ، ولقد عرف لهذا الشعر منزلته ابن عباس الذي كان من منهجه في التفسير أنه إذا خفي عليه الحرف من القرآن رجع إلى ديوانها فالتمس معرفة ذلك منـه .

يحدثنا طلحة بن عمرو عن عطاء قال : سمعت ابن عباس إذا سئل عن عربية القرآن أنشد الشعر ، فقيل له : « ما زنيم » ؟ من قوله تعالى : « عتل بعد ذلك زنيم »[2].

قال ابن عباس :

زنيم تداعاه الرجال زيادة هكذا كما زيد في عرض الأديم الأكارع .

وعن ابن ملكية قال : سئل ابن عباس عن « والليل وما وسق »[3] فقال : وما جمع . ألم تسمع إلى قول الشاعر :

---

(١) نزهة الألباء ص ٧٣ .

(٢) القلم : ١٣ .

(٣) الانشقاق : آية ١٧ .

إن لنا قلائصا حقائقا   مستوسقات لو يجدن سائقا

وعن ابن صالح قال : سمعت ابن عباس ينشد للناس هذا البيت في قوله تعالى : « يوم تبدل الأرض غير الأرض »[1].

وما الناس بالناس الذين عهدتهم   وما الدار بالدار التي كنت أعرف[2]

وإتقان اللغة يستلزم معرفة الكلمات القرآنية المتشابهة التي يعز فهمها على كثير من الناس ، وحتى في عصر الازدهار اللغوي يحدثنا التاريخ أن أعرابياً توقف ذهنه في ادراك معاني بعض الكلمات القرآنية في قوله تعالى : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم »[3] ويتجه إلى النبي عليه السلام ليسأله عن الظلم بقوله : « وأينا لم يظلم نفسه » ؟ فيجيبه النبي عليه السلام بأن الظلم في الآية هو الشرك ، واستشهد عليه السلام بقوله تعالى : « إن الشرك لظلم عظيم »[4].

وقد أصاب ابن قتيبة الحقيقة حينما قرر في كتابه « المسائل » بأن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن الكريم من الغريب والمتشابه ، بل لبعضها الفضل في ذلك على بعض ، والدليل عليه قوله تعالى : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم »[5].

ويؤيد ابن قتيبة هذا المعنى بقول بعضهم : « يا رسول الله ، إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه ، ونحن العرب حقاً ! فقال : إن ربي علمني فتعلمت »[6]. وغريب القرآن الكريم كان موضع دراسة لعلماء الإسلام عبر القرون . ألف فيه أبو عبيدة معمر بن المثنى كتاب « المجاز » وألف فيه ابن قتيبة كتابه : تفسير غريب القرآن ، ولأبي حيان الأندلسي كتاب : لغات القرآن ، وقد عقد ابن النديم في كتابه الفهرست باباً خاصاً للمؤلفات

---

(١) ابراهيم : آية ٤٨ .

(٢) انظر في هذه المواضع ص ١٩٨ ، ص ١٩٩ من كتاب : مقدمتان في علوم القرآن .

(٣) الأنعام : آية ٨٢ .

(٤) لقمان آية ١٣ ، وانظر : أثر القرآن في تطور النقد الأدبي ص ٢٧ .

(٥) آل عمران : آية ٧ .

(٦) المسائل لوحة ٤ نسخة مصورة رقم ٢٢٠٩٦٧ مكتبة جامعة القاهرة .

الإسلامية التي دارت حول غريب القرآن . وإتقان اللغة أيضاً يقتضي إتقان قواعدها نحوها وصرفها ، فمن لم يكن ذا خبرة بهذه القواعد أفلتت من يده حقائق التفسير .

ومن أجل ذلك يقول الأصمعي : سمعت الخليل بن أحمد يقول : سمعت أيوب السّجستاني يقول : « عامة من تزندق بالعراق لقلة علمهم بالعربية »[1]. ولمكانة النحو في التفسير يوضح ابن قتيبة خطورة هذا العلم وأثره في فهم المعنى فيقول : « ولو أن قارئا قرأ « فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون »[2] وترك طريق الابتداء بإن ، وأعمل القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب إن بالقول كما ينصبها بالظن لقلب المعنى من جهته ، وازالة عن طريقته ، وجعل النبي عليه السلام محزوناً لقولهم إن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، وهذا كفر ممّن تعمده ، وضرب من اللحن لا تجوز الصلاة به ولا يجوز للمأمومين أن يتجوزوا فيه[3].

ويعدد الامام الغزالي في كتابه الإحياء الأمثلة التي لا يكتفي فيها بظاهر العربية ، لأنها لا تسعف في كثير من مجالات التفسير ، فيقول مثلاً في قوله تعالى : « وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها »[4] معناه : آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها ، فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ، ولم تكن عمياء .

وفي قوله تعالى : « وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم »[5] أي حب العجل فحذف الحب .

وفي قوله عز وجل : « إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات »[6]

---

(١) الزينة : ص ١١٧ .
(٢) يس : آية ٧٦ .
(٣) تأويل مشكل القرآن ص ١٢ .
(٤) الاسراء : ٥٩ .
(٥) البقرة : ٩٣ .
(٦) الاسراء : ٧٥ .

أي ضعف عذاب الأحياء ، وضعف عذاب الموتى ، وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة والموت ، وكل ذلك جائز في فصيح اللغة .

ومن هذا القبيل ما ذكره الصفدي في كتابه « الغيث المسجم في شرح لامية العجم » حينما تعرض للآية القرآنية : « وجدها تغرب في عين حمئة »[1] قال ما نصه : « وهذه الآية ظاهرها مشكل وهو مغمز للزنادقة ، لأنهم يقولون : إن البرهان قد ثبت في المجسطي : أن الشمس قدْر الأرض نحو مائة وستين مرة وكسوراً فكيف تدخل مع هذا القدر العظيم في عين من عيونها ؟ .

والجواب أن (في) هنا ليست ظرفية ، وأنها على ما ذهب اليه ابن قتيبة بمعنى عند كقول الشاعر :

* حتى إذا ألقت يداً في كافر * . . .

أو بمعنى مع كقول الشاعر :

* وفي الشر نحاة حين لا ينجيك إنسان *

معناه : ومع الشر[2].

وقد حذر الإمام مالك بن أنس هؤلاء الذين يتجرءون على كتاب الله مفسرين من غير أن يتفقهوا في العربية فيقول -كما رواه البيهقي عنه- : « لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يُفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً »[3].

٢- ومن أدوات المفسر معرفة أسباب النزول ، فكثير من الآيات القرآنية مرتبطة بأسباب نزولها ، ولا تفسر إلاّ في ضوء هذه الأسباب وإلا لأخرجنا هذه الآيات عن حقائقها ، وقلنا في كتاب الله بغير علم ، فمثلاً قوله تعالى : « فأينما تولوا فثم وجه الله »[4]. ظاهر هذه الآية عدم وجوب استقبال القبلة في الصلاة ، وهذا خلاف الإجماع وخلاف صريح الآية القرآنية الأخرى :

---

(١) الكهف : ٨٦ .

(٢) جـ ١ ص ١٢٨ طبع سنة ١٢٩٠ هـ .

(٣) محاسن التأويل جـ ١ ص ٨ .

(٤) البقرة : ١١٥ .

« فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام »[1]. لو عرفنا أن الآية الأولى نزلت في نافلة السفر ، وفيمن صلى بالتحرى لزال الإلباس ، واتضح وجه الحقيقة من التفسير .

ولم يقف علماء الإسلام مكتوفي الأيدي أمام معرفة أسباب النزول ، فألفوا فيه كتباً عديدة ، من أشهرها كتاب علي بن المديني شيخ البخاري ، وكتاب الواحدي ، وكتاب شيخ الإسلام ابن حجر ، وكتاب السيوطي الحافل ، المسمى : بلُباب النقول في أسباب النزول » .

٣- ومن الأدوات معرفة الاسرائليات ، والوقوف على مصادرها ، وبيان زيفها حتى لا يقع المفسر فيما وقع فيه كثير من المفسرين .

وقد قدم الاستاذان الفاضلان : الأستاذ محمد الذهبي والأستاذ محمود يونس بحثين حول الإسرائيليات في القرآن الكريم ، ألقياهما في المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية . وقد كشف البحثان عن خطورة الاسرائيليات المحشوة بها كتب التفسير ، ولا يحق لمفسر عصري أن يعتمد على هذه الاسرائيليات لأنها من الكذب صيغت ، ولأنها من أجل الفوضى في التفسير صنعت ، فعلى المفسر الواعي أن يفطن لهذه الاسرائيليات ويطرحها بعيداً عن مجال كتاب الله . ولنا أن نتساءل : ما السر الخفي وراء هذه الأكاذيب التي تفيض بها بعض كتب التفسير ؟ وللاجابة عن هذا أترك المجال للأستاذ الفاضل الشيخ الذهبي ليحدثنا عن هذا السر الخفي فيقول : « لقد هال أعداء الإسلام ما أصبح له ولأهله من قوة ، فتربصوا به الدوائر ، وقد تفتحت عقولهم الماكرة ، وقلوبهم الفاجرة عن مكر سيئ ، وخداع بشع ، فتظاهر نفر منهم بالدخول في الإسلام ، وقلوبهم خاوية ، ونسجوا الكذب وأذاعوه في خبث ومهارة . . . إلى أن يقول : ولا شك أن الاسرائيليات بما حوته من أباطيل وخرافات نسب الكثير منها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى صحابته رضوان الله عليهم واتخذها بعض المشتغلين بالتفسير مادة يشرحون بها بعض نصوص القرآن الكريم ، وتشكل

---

(١) البقرة : آية ١٤٤ .

خطراً بالغاً »[1].

وعلى منوال هذه الاسرائيليات نسج كثير من المستشرقين في العصر الحاضر ، فقد قاموا بدراسات عديدة حول القرآن الكريم محشوة بالأباطيل والأكاذيب ، وقد بينت ذلك في بحثين نشرا في مجلة الوعي الإسلامي[2].

٤- ومن أدوات المفسر : الإحاطة بالحديث الشريف ، والعلم الكامل بروايته والدراسة الناقدة لسنده . ذلك لأن الحديث الشريف يفصل مجمل الآيات القرآنية ، ويوضح المراد منها ، وبخاصة في أحكام العبادات والمعاملات فمن لم تكن له دراسة بهذه السنة ، وتصدى لتفسير كتاب الله قيل له : قف حيث أنت فليس كتاب الله نهباً لكل رأي ، أو مطية ذلولاً لكل فكر .

٥- ومن أدوات المفسر : التقيد بالنصوص النقلية إذا قوى سند روايتها ، وأعني بها النصوص التي تقع في دائرة المغيبات ، والمغيبات هي الأمور التي تتعلق بالآخرة : من جنة ونار ، ونعيم وعذاب ، وحساب وعقاب ، وموقف وحشر وصحف وصراط . فهذه المغيبات جميعها لا تخضع لعقل ، أو تقع تحت تجربة أو توضع في مخبار .

إنه ليس من المنهج العلمي – إذاكانت المغيبات هذا شأنها – أن تفسّر بالاجتهاد العقلي ، لأن العقل مرتبط بما تنقله اليه الحواس من خبرات وتجارب . وما عدا ذلك من أمور الغيب فهو قزم في مجالها ، صغير في محيطها . لأن الغيب أكبر منه .

لهذا ، فإني لا أستسيغ التفسير العصري الذي يقول مثلاً إن شجرة آدم التي أكل منها ناسياً هي رمز الجنس ، ليقول الناس بعد ذلك : إنه التجديد في التفسير .

---

(١) مجلة الأزهر أكتوبر سنة ١٩٦٨ .

(٢) أحدهما بعنوان : من دراسات المستشرقين حول القرآن الكريم . الوعي الاسلامي : يونيو سنة ١٩٧٠ .

وثانيها بعنوان : جوانب من أخطاء المستشرقين في الدراسات القرآنية : الوعي الاسلامي : أكتوبر سنة ١٩٧٠ .

ولقد أصاب كبد الحقيقة الدكتور محمد عبد الله دراز حينما يقول في كتابه : « نظرات جديدة في القرآن » ما نصه : « ما في القرآن الكريم من الأنباء التاريخية لا جدال في أن سبيلها النقل لا العقل ، وأنها تجيء من خارج النفس لا من داخلها »[1].

وقد حذر القرآن الكريم من الرأى الذي لا يستند إلى دليل ، والاجتهاد الذي لا يقوم على أصل ، فقال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم »[2].

وقد نعت السنة أيضاً على هؤلاء الذين يخوضون في كتاب الله من غير أن يملكوا هذه الأدوات التي تذلل لهم الطريق ، وتبين لهم الغامض ، فيقول النبي عليه السلام : « من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ »[3].

وفي موضع آخر يقول عليه السلام : من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار[4].

٦- ومن أدات المفسر : الإلمام بمناهج كتب التفسير قديمها وحديثها ليكون المفسر العصرى على بينة من أمره ، حتى لا تختلط عليه المناهج ، فيضطرب تفسيره ، وتهتز آراؤه وتضيع الحقيقة بين هذا الاهتزاز والاضطراب .

ولما كانت مناهج القدماء مختلفة في مجال التفسير رأينا الإمام السيوطي يقوم بجهد كبير ليلّم بهذه المناهج ، ويضع النقاط على الحروف أمام المفسر حتى لا تفلت الحقيقة من يده ، وكتابه : طبقات المفسرين لا يستغنى عنه مفسر في هذا الباب .

إن السيوطي في كتابه بين لنا أن المفسرين أربعة أنواع :

الأول : المفسرون من السلف والصحابة ، والتابعين ، واتباع التابعين .

---

(١) للنبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن) ص ٣٢ .

(٢) الاسراء : آية ١٧ .

(٣) سنن أبي داود في كتاب العلم .

(٤) المرجع السابق .

الثاني : المفسرون من المتحدثين ، وهم الذين صنفوا التفاسير مورداً فيها أقوال الصحابة والتابعين بالإسناد .

الثالث : بقية المفسرين من علماء أهل السنة الذين ضموا إلى التفسير التأويل والكلام على معاني القرآن وإعرابه ، وغير ذلك .

الرابع : من صنف تفسيراً من المبتدعة كالمعتزلة والشيعة ، وأضرابهم ثم قال السيوطي : والذي يستحق أن يسمى بالمفسرين من هؤلاء القسم الأول ، ثم الثاني ، على أن الأكثرين في هـذا القسم نقلة ، وأما الثالث فمؤولة ، ولم أستوف أهل القسم الرابع ، وإنما ذكرت منهم المشاهير كالزمخشري ، والرماني ، والجبائي وأشباههم[1] .

٧- ومن أعظم أدوات التفسير : الإخلاص والتجرد لخدمة هذا الكتاب العظيم. والإخلاص كلمة خفيفة على اللسان ، ثقيلة في الميزان لا يتصف بها إلا أولو العزم من الرجال .

وقد وضع صاحب الكتاب مفتاح السعادة : ميزاناً دقيقاً لتعريف الإخلاص فيقول : « إن الاخلاص هو النية بشرط كون الباعث واحداً فقط ، فمن صام للقربة ، وقصد معه الحمْية ، أو حج للقربة مع قصد صحة المزاج بحركـة السفر ، أو تعلم العلم لله مع قصد العز بين العشيرة ، ونحو ذلك من أمثال هذه الخطرات التي يخف معها العمل ، فقد خرج بهذه عن الإخلاص ، وتطرق اليه الشرك ، . ولما كان الإنسان قلما ينفك عن أمثال هذه الحظوظ قيل : « من سلم له في عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى فقد نجا »[2] . وهؤلاء المفسرون العصريون الذين يحسون بالحظوظ النفسية حينما يتعرضون لكتاب الله مفسرين وشارحين — مغرورون ، يملأ الكبر جوانب نفوسهم ، لأن الحظوظ النفسية تغلق أبواب المعرفة أمام المفسر ، فيهرف بما لا يعرف ، ويخبط خبط عشواء .

---

(١) مقدمة : كتاب طبقات المفسرين طبع أوربا .

(٢) مفتاح السعادة جـ ٣ ص ٥٣٢ .

ومن أجل ذلك يشترط العلماء في المفسر أن يخلص لله ، ويتجرد من الهوى ، ويصفي قلبه من شوائب الحياة ، لأن القرآن الكريم لا يعطي معانيه ، ولا يكشف أسراره إلا لهؤلاء الذين رسخوا في العلم ، ومرنوا على التقوى ، ودُرِّبوا على مجاهدة النفس .

يقول صاحب « مفتاح السعادة » : « . . . ولعل العمر لو أنفق في استكشاف أسرار القرآن ، وما يرتبط بمقدماتها ولواحقها لانقطع العمر قبل استيفائها ، وما من كلمة في القرآن إلا تحقيقها محوج إلى مثل ذلك وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بعد غزارة علومهم ، وصفاء قلوبهم ، وتوافر دواعيهم على التدبر ، وتجردهم للطلب . وأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ، ولو كان البحر مداداً ، والأشجار أقلاماً لنفد البحر قبل أن تنفذ أسرار القرآن » .

٨- ومن أدوات المفسر ألا يطلب الدنيا بعلمه ، لأن الدنيا والآخرة كالضرتين متى أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، وككفتي ميزان في رجحان إحداهما خفة الأخرى ، وكالمشرق والمغرب يستلزم قرب أحدهما البعد من الآخر .

فكيف يعد من زمرة العلماء المفسرين من أكل الدنيا بعلمه كما قيل :

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها ... فكيف اذا الرعاة لها ذئابُ

ولعلي بهذا القدر أكون قد ألقيت ضوءاً كاشفا حول أدوات المفسر من وجهة نظري .

تفسير القرآن بالقرآن

تفسير القرآن بالقرآن

معنى التفسير :

التفسير في اللغة يرجع الى معنى الاظهار والكشف ، وأصله كما يقول الزركشي في كتابه : « البرهان مأخوذ من التفسرة .

والتفسرة كما يقول صاحب « اللسان » : هي البول يستدل به على المرض ، وينظر فيه الأطباء يستدلون بلونه على علة العليل ، وكذلك المفسر يكشف عن شأن الآية ، وقصصها ، ومعناها ، والسبب الذي أنزلت فيه ، وكأنه تسمية بالمصدر ، لأن مصدر فعّل جاء أيضا على تفعلة نحو : جرّب تجربة ، أو كرّم تكرمة .

وفي رأي ابن الأنباري أن أصل التفسير مأخوذ من قول العرب : فَسَرتُ الدابة ، وفسَّرتها اذا ركضتها وهي محصورة لينطلق حصرها ، وعلى هذا المعنى يصير معناه الى الكشف أيضا .

ومعنى التفسير على هذا الرأي : كشف المعلق من المراد بلفظه ، والفعل منه يأتي مزيدا وغير مزيد ، يقال : فسرت الشئ أفسره تفسيراً ، وفسرته أفسره فسرا ، وقد سمى ابن جنى كتبه الشارحة الفسر وهي مصدر فسر .

والرأى الذي أميل اليه ، لأنه أوضح في مجال الدلالات ، وعلاقات المعاني أن التفسير أصله ، سفر لا فسر ، وضعت الفاء موضع السين على أساس القلب المكاني ، والقلب المكاني باب معترف به في مجال اللغة ، وسفر معناها : الكشف ، يقال : سفرت المرأة سفورا اذا ألقت خمارها عن وجهها وهي سافرة ، وأسفر الصبح : اذا أضاء .

نشر في مجلة الوعي الإسلامي – يوليو سنة ١٩٧٢ .

وإنما بنوه على التَّفعيل فقالوا : التفسير ، لأنه للتكثير كقوله تعالى : « يذبّحون أبناءكم » ، « وغلّقت الأبواب » فكانه يتبع في تفسيره سورة بعد سورة ، وآية بعد أخرى .

والتفسر معناه في اصطلاح المفسرين : علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها ، والاشارات النازلة فيها ، وترتيب مكيها ومدنيها ، ومحكمها ومتشابهها ، وناسخها ومنسوخها ، وخاصها ، وعامها ، ومطلقها ، ومقيدها ، ومجملها ، ومفسرها .

متى بدأ التفسير ؟

مما لا ريب فيه أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب ، ولغة العرب في هذه الفترة من التاريخ كانت مضرب المثل في رصانة الألفاظ ، وبلاغة المعاني وقوة التراكيب ، وقد برزت خصائصها كاملة في الشعر العربي مما جعل بعض العلماء يقول : « ولو وجد أرسطو في شعر اليونان ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال ، والاستدلالات ، واختلاف ضروب الابداع في فنون الكلام لفظا ومعنى ، وتبحرهم في أصناف المعاني وحسن تصرفهم في وضعها ، ووضع الألفاظ بإزائها ، وحسن مآخذهم وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاءوا — لزاد على ما وضع من قوانين الشعر »

ومع قـوة اقتدارهم في فنون القول تحداهـم القرآن الكريم أن يأتوا بمثله ، أو بعشر آيات منه ، أو بأقصر سورة مـن سوره ، فعجزوا بعد أن حاولوا ، وصدق الله العظيم حين يقول : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

ومما لا شك فيه أن هذا يدل على أن كلام الله لا يشبهه كلام في مجـال الفصاحة والغرابة ، والتصرف البديع ، والمعاني اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة ، والتشابه في البراعة .

ولنا أن نتساءل : هل القرآن الكريم الذي بلغ هذه الذروة في فصاحة الكلمة وبلاغة المعنى يفهمه العرب جميعا ، ولا يحتاجون في مجاله الى بيان أو تفسير ؟

وللاجابة عن هذا السؤال أقول : ان من المفكرين العرب من يرى هذا الرأى كابن خلدون الذي نص في مقدمته على : « أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه » .

وفي رأيي أن ابن خلدون تجاوز الحقيقة في هذا الرأي ، وذلك للأمور الآتيـة :

١- لغة العرب لم تكن ممثلة في لهجة واحدة ، حقا قال الرواة : إن القرآن الكريم نزل بلهجة قريش لأن قريشا -كما يقول أبو نصر الفارابي في كتابه المسمى (بالألفاظ والحروف) -كانت أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق .

أو كما يقول أبو حاتم الرازي في كتابه : « الزينة » بصدد لهجة قريش : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نزل القرآن الكريم على قلبه لينذر قومه أفصح العرب ، وهو من قريش ، وقريش من ولد اسماعيل ، وولـد اسماعيل أفصح من اليمن الذين هم من ولد يعرب بن قحطان » .

ولكني مع هذه النصوص لا أميل الى أن القرآن الكريم نزل بلهجة قريش وحدها بل نزل بها وبغيرها من اللهجات العربية الأخرى لأن هنالك نصوصا تؤكد أن القرآن الكريم نزل بسبعة أحرف لييسر للعرب جميعا الانتفاع به ، ومعنى ذلك أن هذه الأحرف تشتمل على كثير من اللهجات العربية ، وحوادث اختلاف القراءات بين الصحابة عديدة سجلتها كتب الرواة والتاريخ . واذا كان الأمر كذلك فان كثيرا من الأحرف التي نزل بها القرآن لا يعرفها العرب جميعا ، وتحتاج الى بيان وتوضيح ، وتفسير لمعانيها ، والأمثلة على اختلاف مدلولات الكلمات باختلاف اللهجات عديدة ، والى القارئ طائفة منها لتكون دليلا على ما أقول :

ذكر اسماعيل بن عمرو المقرئ في كتابه الشهير (اللغات في القرآن) الأمثلة الآتية من سورة البقرة :

« رغــــدا » آية ٣٥ = الخصب بلغة طيئ .
« فأخذتكم الصاعقة » آية ٥٥ = الموت بلغة عمان .
« رجـــزا » آية ٥٩ = العذاب بلغة طيئ .
« اشـــتروا » آية ١٦ = باعوا بلغة هذيل .
« فلا رفث » آية ١٩٧ = الجماع بلغة مذحج .

ألا يدل هذا على اختلاف المدلولات بين اللهجات مما يؤكد أن العرب جميعا لم يكونوا على مستوى واحد في فهم مدلولات القرآن الكريم .

٢- ذكر ابن قتيبة في كتابه (المسائل) أن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه ، بل لبعضها الفضل في ذلك على بعض ، والدليل عليه قوله تعالى : « وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به » ، ثم قال ابن قتيبة ويدل عليه قول بعضهم : يا رسول الله إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه ، ونحن العرب حقا ؟ قال : إن ربي علمني فتعلمت » .

٣- وقد ذكر ابن تيمية في مقدمته « أصول التفسير » : انه يجب أن يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم بين لاصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه فقوله تعالى : « لتبين للناس ما نزل اليهم » يتناول هذا ، وهذا ، وقد قـال أبـــو عبد الرحمن السلمي : « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما أنهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم ، والعمل ، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا » .

فهذه النصوص التي قدمتها ترد قول ابن خلدون السابق ، وتشير الى أن العرب لم يكونوا على درجة واحدة في ادراك معاني القرآن ، بل لبعضهم الفضل في ذلك على بعض ، وأن الذين لا يدركون هذه المعاني من حقهم أن يدركوها فالنبي عليه الصلاة والسلام بينهم يبيئن ما غمض عليهم ، ويوضح ما خفـى عنهـم .

الخطوة الأولى لتفسير القرآن الكريم :

وكان بيان النبي عليه السلام لما غمض ، وتوضيح ما خفي ، هو الخطوة الأولى لتفسير القرآن ، واليك الدليل :

١- لما نزل قوله تعالى : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن » قال بعض الصحابة : وأينا لم يظلم نفسه ؟ ففسر النبي عليه الصلاة والسلام الظلم بالشرك ، واستدل عليه بقوله تعالى : « ان الشرك لظلم عظيم » .

٢- سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحساب اليسير في قوله تعالى : « فأما من أوتي كتابه بيمينه . فسوف يحاسب حسابا يسيراً » فبين لها النبي عليه الصلاة والسلام أنه العرض يوم القيامة .

٣- حديث عدى بن حاتم قال : لما نزلت : « حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » عمدت الى عقال أسود ، والى عقال أبيض فجعلتها تحت وسادتي ، فجعلت أنظر في الليل ، فلا يستبين لى ، فغدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك فقال : « إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار » . وهذه الخطوة الأولى من التفسير التي بدأت على يد النبي عليه الصلاة والسلام موضع اتفاق بين العلماء جميعا ، ذلك لأن السنة هي الضوء الكاشف لما أجمله القرآن ولم يفصله ، والسنة هي التي حددت لنا عدد الصلوات ، وعدد الركعات والسجدات في الصلاة ، وهي التي بينت لنا مقدار النصاب في الزكاة ، ولذلك رد عمران بن حصين على كل رجل كان يرى أن القرآن حوى كل شئ ، فقال له : انك رجل أحمق ، أتجد الظهر في كتاب الله أربعا لا يجهر فيها بالقراءة ؟ ثم عدد عليه الصلاة ، والزكاة ، ونحو ذلك ثم قال : أتجد هذا في كتاب الله لنا مفسرا ؟ ان كتاب الله تعالى أبهم هذا ، وأن السنة تفسر هذا .

هذا وقد ثار الجدل بين العلماء حول تفسير النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن هل فسر القران الكريم كله أو فسر جزءا منه ، أو فسر فقط ما أشكل من آياته ؟

في رأيي أن النبي عليه السلام لم يفسر القرآن كله متتبعا سوره ليفسر آياتها آية آية كما يفعل ذلك المفسرون ، لأنه لو فعل ذلك لأغلق باب التفسير . . .

ووقف الفكر عند هذا الحد ، وبذلك يتعطل الاجتهاد ويتجمد الفكر ، والاسلام من أخص خصائصه أن يتيح الطريق للافكار العطشى أن تنهل من معين القرآن ما شاء لها أن تنهل ، بشرط أن تكون أدوات التفكير متكاملة ، ومن ثم ازدهر التفسير وتعددت مناهجه عبر القرون الى يومنا هذا .

ولكن الذي يمكن أن يقال · أن النبي عليه الصلاة والسلام تناول في تفسيره التي تحتاج الى بيان في العقيدة أو العبادة أو المعاملة أو السلوك ، وما كان في اطار غير هذا الاطار تركه النبي صلى الله عليه وسلم للعرب يفهمونه بلغتهم ، وعلى مقتضى أساليبهم في فنون القول . ولا أستطيع في هذا البحث الموجز أن أبين مناهج التفسير المختلفة في عصر الصحابة أو التابعين ، ومن جاء بعدهم ، ولكن الذي أستطيع أن أتبينه هنا أن من أهم مصادر التفسير ومناهجه تفسير القرآن بالقرآن .

تفسير القرآن بالقرآن :

وتفسير القرآن بالقرآن يتوقف على الادراك الواسع ، والفهم الدقيق لآياته ، والنظر الى الآيات المتكررة وربطها بعضها ببعض ، وجمعها في إطار واحد لينظر اليها في صورتها المتكاملة ، وأن الاشعاعات الفكرية التي تعطيها هذه الصورة المتكاملة تزيل التناقضات ، والاختلافات التي يرمي بها الجهلة كتاب الله ، وكتاب الله منها بريءٌ لأنه كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، وفهم القرآن ليس سهلاً ، لأنه يحتاج الى تصفية النفس من أكدارها ، والعقل من شبهاته ، والقلب من خطراته ، ولا أدل على ذلك من كلمة على كرم الله وجهه ، وقد سئل : هل خصكم يا أهل البيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيءٍ ؟ فقال : ما عندنا غير ما في هذه الصحيفة ، أو فهم يؤتاه الرجل في كتاب الله . والزبيدي يبين أن مرتبة فهم كتاب الله مرتبة عظيمة ويستدل لذلك بقوله تعالى : « ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما » فانه تعالى خصص ما انفرد به سليمان بالتفطن له باسم الفهم ، وجعله مقدما على العلم والحكم ، فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالا رحبا ، ومتسعا بالغا ، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الادراك فيه .

وتفسير القرآن بالقرآن يتمثل في صور عديدة أذكر منها ما يأتي :

١- المعاني العديدة للكلمة الواحدة .

ذلك لأن الكلمة الواحدة في القرآن الكريم قد تتصرف الى عشرين وجها أو أكثر أو أقل ، ولا يوجد ذلك في كلام البشر - من ذلك كلمة الهدى فهي :

= بمعنى البيان في قوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم » .
= وبمعنى الدين في قوله تعالى : « قل إن هدى الله هو الهدى » .
= وبمعنى الايمان في قوله تعالى : « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » .
= وبمعنى الداعي في قوله تعالى : « ولكل قوم هاد » .
= وبمعنى الرسل أو الكتب في قوله تعالى : « فإما يأتينكم مني هـدى » .
= وبمعنى الرشاد في قوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم » .
= وبمعنى التوراة في قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الهدى » .
= وبمعنى الحجة في قوله تعالى : « والله لا يهدي القوم الظالمين » .
بعد قوله تعالى : « ألم تر الى الذى حاج ابراهيم في ربه » .
= وبمعنى التوحيد في قوله تعالى : « إن نتبع الهدى معك نتخطف » .
= وبمعنى السنة في قوله تعالى : « وإنا على آثارهم مهتدون » .
= وبمعنى الإلهام في قوله تعالى : « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . . الخ

٢- التكرار :

والتكرار تفسير وتوضيح ، فقصة موسى عليه السلام ذكرها الله تعالى -كما قال بعضهم - في مائة وعشرين موضعا في كتابه ، ومع ذلك التكرار فإن الصورة لا تهتز ، لأنه تفنن في القول ، وابداع في التصوير ، وأساليب مختلفة تساق لقصة واحدة ، وفي هذا من البلاغة ما فيه .

على أن التكرار لا يخلو من زيادة مفيدة ، ففي قصة موسي مثلا نجد أن الله تعالى صور العصا في سورة طه آية (٢٠) بأنها حية تسعى ، وذكرها في الأعراف آية (١٠٧) بأنها ثعبان مبين ، وفي موضع آخر - تهتز كأنها جان ولى مدبرا - :

ويعقب السيوطي في الاتقان على صور العصا المختلفة بقوله : « ان خلقها خلق الثعبان العظيم ، واهتزازها وحركتها كاهتزاز الجان وخفته » .

ويبين الزركشي بعض الأسباب التي من أجلها كررت القصة في القرآن فيقول :

١- إن الرجل كان يسمع القصة من القرآن ثم يعود الى أهله ، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل ، فلولا تكرار القصة لوقعت قصة موسى الى قوم ، وقصة عيسى الى آخرين ، وكذلك سائر القصص ، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها فيكون فيه إفادة لقوم ، وزيادة تأكيد وتبصرة لآخرين ، وهم الحاضرون .

٢- ومن الأسباب تسلية النبي عليه الصلاة والسلام ، وتكرار هذه التسلية ليثبت قلبه دائما في مجال دعوته الى الحق كما قال تعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » .

٣- إن الدواعي لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام فلهذا كررت القصة ، دون الأحكام .

وإني أميل إلى رأى ابن فارس في قوله : إن تكرار القصة نوع من الإعجاز القرآني لبلغاء العرب وفصحائهم ، فبعد أن عجزوا عن الإتيان بمثل آية ، بين لهم وأوضح الأمر في عجزهم ، بأن كرر ذكر القصة في مواضع إعلاما بأنهم عاجزون عن الاتيان بمثله بأي نظم جاءوا ، وبأي عبارة عبّروا . ويؤيد هذه الفكرة الامام الباقلاني في إعجاز القرآن فيقول :

« ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت ، بل هو على نهاية البلاغة ، وغاية البراعة ، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر » .

على أن الناظر الى قصص القرآن يجد أن الهدف من التكرار هو الهداية والعبرة ، وكأن هذا التكرار يذكر الأمم دائما بالمصير الوبيل الذى حل على

هؤلاء الناس الذين وقفوا من دعوات أنبيائهم موقف التحدي والنكران .

٣- توضيح الفكرة بضروب من الاستدلالات المختلفة :

ومن تفسير القرآن بالقرآن أن الفكرة تتضح أبعادها ا وتنكشف جوانبها ، اذا تعددت الاستدلالات عليها من واقع الحياة ، وبذلك يطمئن القلب اليها . وتستريح النفس لها ، ويؤمن العقل بها ، والمثال على ذلك قصة البعث والاعادة :

وقد سلك القرآن الكريم لتفسير قصة البعث طرقا مختلفة :

١- قياس الاعادة على الابتداء بقوله تعالى : « كما بدأكم تعودون » .

٢- قياس الاعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات بقوله تعالى : « ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون » .

٣- قياس قدرة الاعادة على قدرة إخراج النار من الشجر الأخضر ، وقد ورد في هذا أن أبى بن خلف لما جاء بعظام بالية ففتها وذرها في الهواء ، وقال يا محمد : « من يحيى العظام وهي رميم ؟ » فأنزل الله تعالى : « قل يحيبا الذي أنشأها أول مرة » ثم زاد الحجاج بقوله : « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا » .

٤- احتمال اللفظ معنيين في موضع ، وتعيين واحد منهما في موضع آخر :

ومن تفسير القرآن بالقرآن أن اللفظة أو الكلمة تحتمل معنيين في موضع ثم يعين أحد المعنيين في موضع آخر وذلك كقوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » ، فيحتمل أن يكون السمع معطوفا على « قلوبهم » ، ويحتمل الوقف على « قلوبهم » ، والابتداء بقوله : (وعلى سمعهم) والاحتمال الأول أولى لقوله تعالى في سورة الجاثية : « وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة .

وكقوله تعالى : « ويستغفرون لمن في الأرض » والمراد بهم المؤمنون بدليل قوله تعالى في موضع آخر : « ويستغفرون للذين آمنوا » .

٥- الاستنباط مع ضميمة أخرى تعين عليه :

وذلك كاستنباط علي وابن عباس رضي الله عنهما أن أقل الحمل ستة أشهر من قوله تعالى : « وحملة وفصالة ثلاثون شهرا » مع قوله تعالى « وفصاله في عامين » ، وعلى هذا الاستنباط جرى الامام الشافعي .

وكاستنباط بعض المتكلمين أن الله خالق لأفعال العباد من قوله تعالى : « وما تشاءون الا أن يشاء الله » مع قوله تعالى : « وربك يخلق ما يشاء ويختار » فإذا ثبت أنه يخلق ما يشاء ، وأن مشيئة العبد لا تحصل الا اذا شاء الله أنتج أنه تعالى خالق لمشيئة العبد .

٦- رفع التناقض وإزالة الاختلاف :

وذلك كقوله تعالى : « اتقوا الله حق تقاته » مع قوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » .

جمع بينهما بعض العلماء ، فحمل الأول على التوحيد بدليل قوله تعالى بعدها : « ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » ، وحمل الثانية على الأعمال .

ومثله قوله تعالى : « وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة » مع قوله تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر » .

قيل : إن آية الأعراف تجري على الظاهر من أن الوعد كان ثلاثين ثم أتم بالعشر ، فاستقرت الأربعون ، ثم أخبر في آية البقرة بما استقر .

وقد سأل رجل بعض العلماء عن قوله تعالى : « لا أقسم بهذا البلد » ، فأخبر أنه لا يقسم ، ثم أقسم في قوله : « وهذا البلد الأمين » فقال له : اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحضرة رجال ، وبين ظهراني قوم ، وكانوا أحرص الخلق على أن يجدو فيه مغمزا ، وعليه مطعنا ، فلو كان هذا عندهم تناقضاً لتعلقوا به ، وأسرعوا بالرد عليه ، ولكن القوم علموا وجهلت ، فلم ينكروا منه ما أنكرت ، ثم قال له : إن العرب قد تدخل(لا)في أثناء الكلام وتلغى معناها ، وأنشد عليه أبياتا .

٧- **علم المبهمات :**

ومن تفسير القرآن بالقرآن علم المبهمات ، هكذا أطلق عليه علماء التفسير ، والمراد به أن يبهم في موضع استغناء ببيانه في موضع آخر في سياق الآية ، ويمثلون له بقوله تعالى :

« مالك يوم الدين » فقد بين يوم الدين بقوله في موضع آخر في سياق الآية : « ثم ما أدراك ما يوم الدين . يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله » .

وكقوله تعالى : « صراط الذين أنعمت عليهم » فقد بينه بقوله : « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » .

٨- **تفسير الألفاظ الغربية :**

وهو ضرب من تفسير القرآن بالقرآن ، وتفسيرها بالسياق القرآني نفسه ، ويمثلون له بقوله تعالى : « إن الإنسان خلق هلوعا » وقد فسر السياق القرآني نفسه هذا الهلوع بقوله بعد ذلك : « اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا » .

٩- **تفسير المراد بنص صريح يبين خفاءه :**

لما نزل قوله تعالى : « وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » اضطرب الصحابة ، لأنهم اعتقدوا أنهم سيحاسبون على كل شئ حتى خواطر أنفسهم وحركات قلوبهم . فقالوا يا رسول الله : نزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها . فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم : سمعنا وعصينا ، بل قولوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا واليك المصير . فأخذوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها في نص صريح وهو قوله : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » الى آخر السورة ، وبعد نزولها علموا أنهم لا يحاسبون على خطرات النفس ، وهواجس القلب .

ولما توفي عبد الله بن أبي ، كبير المنافقين ، كفنه النبي عليه الصلاة والسلام في ثوبه ، وأراد أن يستغفر له ، ويصلى عليه ، فقال عمر رضي الله عنه :

أتصلي عليه وقد نهاك ربك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنما خيّرني ربي فقال : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة . . . . » . . وسأزيد على السبعين وصلى عليه بناء على هذا الفهم الإنساني ، ولكن القرآن وضع النقاط على الحروف ليزيل خفاء المعنى ، ويمنع اللبس ، حيث قال تعالى بعد ذلك : « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره » .

١٠- الاجمال والتفصيل :

هناك آيات قرآنية وردت مجملة موجزة ، وأخرى موضحة مفصلة في موضوع واحد ، ونحن بازاء هذه الآيات يجب ألا نقف عند المجمل وحده من غير نظر الى الآيات التي فسرته وفصلته ، ولو فعلنا ذلك لوقعنا في الخطأ لأننا أخذنا الحقيقة مغلفة ولا ندري ما بداخلها .

ويمثلون لهذا النوع من التفسير بقوله تعالى : « وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم » ولكن ما الذي يتلى علينا ، ويحرم علينا أكله ؟ لم تبينه هذه الآية ، ولكنها أجملت ما يتلى في هذا الموقف ، وتعود الآيات بعد ذلك لتوضح هذا الذي يتلى فيقول تعالى : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » الى آخر الآيــة .

وقوله تعالى : « لا تدركه الأبصار » فسرتها آية « وجوه يومئذ ناضرة . الى بها ناظرة » .

وبعد ، فان المنهج السليم لتفسير القرآن الكريم يجب أن يتناول أولا وقبل كل شيء هذه الآيات العديدة التي يفسر بعضها بعضا ، ولا يستطيع المفسر المنصف أن يبني حكما ، أو يقرر رأيا أو يكشف معنى إلا بعد استيعابه الكامل لهذا اللون من التفسير ، ألا وهو تفسير القرآن بالقرآن

غريب القرآن الكريم
بين اللهجة القرشية واللهجات العربية

غريب القرآن الكريم
بين اللهجة القرشية واللهجات العربية

١- اللهجة القرشية :

من المكرر المعاد القول بأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين فهذه حقيقة لا يختلف فيها أحد ، اللهم الا من أعمى الله أبصارهم وطمس على قلوبهم .

وقد أكد الله سبحانه هذه الحقيقة حيث أعادها أكثر من مرة في كتابه العظيم حيث يقول – « وهذا لسان عربي مبين »[١] .

« نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين »[٢] .

« انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »[٣]

« وكذلك أنزلناه حكما عربيا »[٤] .

« وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا »[٥] .

« كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا »[٦] .

« وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا »[٧] .

« انا جعلناه قرآنا عربيا »[٨] .

« وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا »[٩] .

ويذكر الرواة والعلماء أنه نزل بلهجة قريش ، ولهجة قريش ، هي اللهجة النموذجية الأدبية ، وقد نضجت حتى وصلت الى الذروة في فصاحتها وبلاغتها .

وقد شاع بين العلماء هذا القول ، وسجلته كتب الرواية والتاريخ حتى أوشك أن يكون حقيقة مؤكدة .

وقد أرجع بعض العلماء المحدثين هذا الانتصار الكبير للهجة القرشية في مجال الفصاحة والبلاغة الى عدة عوامل أجملها فيما يأتي :

---

* نشر في مجلة الوعي الاسلامي مارس ١٩٧١ .

١- **العامل الجغرافي :**

لأن قريشا تسكن منطقة مستقلة تسمى حجازا لها يحفظها من التأثر البعيد المدى بالمؤثرات الخارجية ، ولذلك احتفظت بخصائصها اللغوية .

٢- **العامل الديني :**

فقد كانت قريش سدنة البيت ، والبيت محجة العرب في الجاهليـــة .

٣- **العامل الاقتصادي :**

فمعظم تجارة العرب كانت في أيدي قريش يجوبون بها طرف الجزيرة شمالا ، وجنوباً ومجامع العرب وأسواقها بعد الحجيج كانت تعقد على مقربة من مكة .

٤- **العامل السياسي :**

وهو مرتب على العوامل السابقة ، وقد يسر ذلك كله أسباب النفوذ لقريش في أنحاء الجزيرة [١٠] .

ومن القدماء الذين أثر عنهم هذا القول « أبو نصر الفارابي » فقد قال في كتابه المسمى بـ « الألفاظ والحروف » كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق[١١] .

من هذا الذي قدمت تبين لنا في وضوح السر الذي من أجله نزل القرآن الكريم بهذه اللهجة القرشية ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى نزل القرآن الكريم على قلبه لينذر به قومه « أفصح العرب ، وهو من قريش ، وقريش من ولد إسماعيل وولد إسماعيل من اليمن الذين هم من ولد يعرب بن قحطان » [١٢] .

وحينما كتب المصحف قال عثمان رضي الله عنه للرهط القرشيين الثلاثة « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه انما نزل بلسانهم » [١٣] .

قال الزهرى : فاختلفوا في « التابوت » فقال زيد : هو « التابوه » وقال النفر القرشيون هو « التابوت » فرفع الأمر الى عثمان فقال : اكتبوه بلسان قريش ،

فإن القرآن نزل بلسانهم .[١٤] .

وفي رأيي أن نزول القرآن الكريم باللهجة القرشية دون غيرها من اللهجات العربية أمر فيه نظر ، فإن القرآن الكريم اشتمل على كثير من لهجات العرب التي انتشرت في الجزيرة العربية ، ولو كان الأمر كما يقول هؤلاء المؤرخون – لما رأينا بعض الصحابة يرجع الى النبي صلى الله عليه وسلم ليفسر له بعض كلمات القرآن التي غمض عليه معناها ، فقد سأله السائل في قوله تعالى : « ولم يلبسوا ايمانهم بظلم »[١٥].

قائلا : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فيفسر له النبي صلى الله عليه وسلم هذا الظلم بالشرك مستشهدا بقوله تعالى : « إن الشرك لظلم العظيم »[١٦].

وايماني بهذا الرأي يبعد ما يدعيه بعض المحدثين من أن الاسلام فرض على العرب جميعا لغة عامة هي لغة قريش ، مع أن الاسلام برئ من هذا الادعاء ، فقد نزل القرآن بسبعة أحرف لييسر للعرب جميعا الانتفاع به والالتصاق بأحكامه وآدابه .

وقد بينت ذلك في بحث سابق نشر في « مجلة الفكر الاسلامي »[١٧].

ومالى أذهب بعيدا ، فقد وضع الأمر في نصابه رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما رد على بعض أصحابه الذين سألوه : يا رسول الله : انك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه ، ونحن العرب حقا فقال : إن ربي علمني فتعلمت[١٨] أليس يدل هذا على أن النبي عليه السلام الذي تربي في قريش ، ونشأ بين أحضانها علمه ربه كلام العرب ، لأنه أرسل اليهم خاصة والى الناس عامة ؟ وكيف يتحدى العرب بهذه المعجزة الخالدة ولغة القرآن قبيلة واحدة ؟

إن القول بأن القرآن الكريم انما نزل بلسان قريش وحدها يتعارض مع النصوص القرآنية ذاتها فالنصوص السابقة التي سجلتها في مقدمة هذا البحث تؤكد أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين ، فكيف أتحكم في تفسير اللسان العربي بأنه اللسان القرشي ؟ وهل قريش وحدها العرب ؟ ذلك أمر لا يقبله المنطق .

وكيف نفسر قول أبي بكر حينما سأله سائل عن قوله تعالى : « وكان الله على كل شيءٍ مقيتا »[19] فقال : أى سماء تظلني ، وأي أرض تقلني ، إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم[20] وقول عمر رضي الله عنه حينما قرأ على المنبر « وفاكهة وأبا »[21] فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم رجع الى نفسه فقال – لعمرك إن هذا هو التكلف يا عمر[22] فلو كان أبو بكر رضي الله عنه يعلم معنى « مقيتا » لما وقف حائرا أمامها ولاذ بالصمت في مجالها ، ولو كان عمر رضي الله عنه يعرف معنى « أبا » لما تساءل هذا التساؤل .

كل ذلك يفسر أن القرآن الكريم (اختص بدقيق المعاني ، وكنوز الأسرار ، وعلو مرتبته في الفصاحة ، ومباينته لكلام فصحاء العرب ، وكل ذلك فيه دلالة على شرفه ، وأنه فائق على غيره من سائر الكلام كله بحيث لا يدانيه كلام[23] وأحب أن أبين في هذا المقام أن العرب يختلف بعضهم عن بعض في الإلمام بهذه اللغة الواسعة التي انتشرت في أرجاء الجزيرة العربية ، وتعددت الى لهجات ، ولا أبالغ اذا قلت : إن القبيلة الواحدة قد يعز على بعض أفرادها أن يحيطوا بقاموس لهجتها ومن هنا نعرض إلى قضية أخرى ، وهي قضية غريب القرآن .

٢- **غريب القرآن** :

يوضح لنا « الرافعي » في كتابه « إعجاز القرآن » معنى الغريب فيقول :

في القرآن الكريم ألفاظ اصطلح على تسميتها بالغرائب ، وليس المراد بغرابتها أنها منكرة أو نافرة أو شاذة ، فان القرآن منزه عن هذا جميعه ، وانما اللفظة العربية ها هنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التأويل ، بحيث لا يتساوى في العلم بهما أهلها ، وسائر الناس »[24].

وفي مجال الغريب ظهر ابن عباس رضي الله عنهما – مفسرا ومبينا ، وكما يحدثنا التاريخ أنه أول صحابي خاض في معمعة هذا الغريب ، وأنه وضع الأسس الأولى لكل من جاء بعده من أصحاب الغريب ، وأسئلة نافع بن الأزرق له تدل على قدم راسخة في معرفة لغات العرب ، والعلم بمواقع كلامها ، ومدلولات ألفاظها ، واليك أيها القارئ بعض هذه الأمثلة :

١- سأله نافع عن قول الله تعالى : « عن اليمين وعن الشمال عزين »[٢٥] .

قال ابن عباس : حلق الرفاق ، قال نافع ، وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال نعم ، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يهرعون اليه حتى
يكونوا حول منبره عزينا .

٢- وسأله عن قوله تعالى : « وابتغوا اليه الوسيلة »[٢٦] قال : الوسيلة الحاجة أما سمعت قول عنترة :

إن الرجال لهم اليك وسيلة
أن يأخذوك تكحلى وتخضبي

٣- وسأله عن قوله تعالى : « إذا أثمر وينعه »[٢٧] قال : نضجه وبلاغه .

أما سمعت قول القائل :

اذا ما مشت وسط النساء تأودت
كما اهتز غصن ناعم النبت يانع

وسأله عن قوله تعالى : « أفلم ييأس الذين آمنوا »[٢٨] قال : أفلم يعلم .

٤- أما سمعت قول مالك بن عوف :

لقد يئس الأقوام أني أنا ابنه
وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

٥- وسأله عن قوله تعالى : « ولا تضحى »[٢٩] قال : لا تعرق من شدة حر الشمس .

أما سمعت قول القائل :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت
فيضحى وأما بالعشي فيخصر

ويعلق الإمام السيوطي على هذه المسائل العديدة في الغريب ، والتي ذكرت طرفا منها في هذا البحث بقوله :

« هذا آخر مسائل نافع بن الأزرق ، وقد حذفت منها يسيرا نحو بضعة عشر سؤالا ، وهي أسئلة مشهورة أخرج الأئمة أفراداً منها بأسانيد مختلفة الى ابن عباس .

وأخرج أبو بكر الأنباري في كتاب « الوقف والابتداء » منها قطعة .

« وأخرج الطبراني في معجمه الكبير منها قطعة » [٣٠] .

وعلى الزغم من انكار الدكتور طه حسين في كتابه « الأدب الجاهلي » قصة استدلال ابن عباس على الكلمات القرآنية الغريبة بالشعر العربي ، فاننا لا نوافقه على هذا الانكار ، ذلك لأن الدكتور يعتمد على انكاره هذا بأن هذه القصة قد وضعت في تكلف وتصنع لتثبت أن الفاظ القرآن الكريم كلها مطابقة للفصيح من لغة العرب ، أو هذه القصة مدسوسة عليه فقد كان له مولى وهو « عكرمة » يدس عليه كثيرا من الأخبار [٣١] والواقع أنه لا داعي لهذه الاحتمالات أو هذه الافتراضات فعبد الله بن عباس يعلم أن الشعر ديوان العرب ، وهو المصدر الوحيد الذي يلجأ اليه في تفسير هذا الغريب ولعله كان متأسيا في منهجه هذا بما رواه : أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أى علم القرآن أفضل ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم عربيته فالتمسوها في الشعر [٣٢] .

هذا فضلا عن ابن عباس رضي الله عنه تميز عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بميزة التأويل ، وهي ميزة لا تتأتى بالممارسة ، أو تكتسب بالتجربة ، ولكنها الهام من السماء يتفتح له العقل ، فيعي ، ويحفظ ما وعاه ، ويتفتح له ولقلب فيدرك من الأسرار ما لا يدرك غيره ، وكان كذلك ابن عباس ، لأن النبي عليه السلام دعا له ، فقال : اللهم علمه التأويل . . [٣٣] .

ومن حق القارئ بعد هذا الذي قدمت أن يقول : وما دليلك على أن القرآن الكريم اشتمل على لغات أو لهجات غير اللهجة القرشية ؟ فأقول له إن المحققين من العلماء بينوا لنا كثيرا من هذه اللهجات ، وقد ألف في ذلك إسماعيل بن عمرو المقرئ كتابه « اللغات في القرآن » واني اكتفي بذكر طائفة منها في سورة واحدة هي سورة البقرة ، لتكون دليلا على ما أقول .

من سورة البقرة :

(رغـــدا)آية ٣٥ = الخصب بلغة طيْ .

(فأخذتكم الصاعقة) آية ٥٥ = الموت بلغة عمان .

(رجـــزا) آية ٥٩ = العذاب بلغة طيْ .

(خاسئيـــن) آية ٦٥ = صاغرين بلغة كنانة .

(فباءوا بغضب) آية ٩٠ = استوجبوا بلغة جرهم .

(واشتـروا) آية ١٦ = باعوا بلغة هذيل .

(سفه نفسـه) آية ١٣٠ = خسر بلغة طيْ .

(فلا رفـث) آية ١٩٧ = الجماع بلغة مذحج .

(ثم أفيضوا) آية ١٩٩ = انفروا بلغة خزاعة .

(بغيا بينهـم) آية ٢١٣ = الحسد بلغة تميم .

(وان عزموا الطلاق) آية ٢٢٧ = حققوا بلغة هذيل .

(فلا تعضلوهن) آية ٢٣٢ = لا تحبسوهن بلغة أزد شنوءة .

(فتركه صلدا) آية ٢٦٤ = أجرد بلغة هذيل[٣٤] .

على أن هذه الكلمات عدت غريبة بالنسبة لغير القبائل التي لم تحتو لهجاتها مثل هذه الكلمات أما القبائل التي وردت هذه الكلمات وفق لغاتها فليست بالنسبة لهم غريبة .

ومن هنا كان واجب العلماء أن يتقصّوا هذه الكلمات ، وينسبوها الى أصحابها وقد فعلوا تيسيرا لمعاني القرآن الكريم ، وكشفا للدلالات التي تدل عليها هذه الكلمات ، والحق نجد أن العلماء لم يقصروا في هذا المضمار ، شمروا عن ساعد جدهم وبذلوا كل جهدهم ليذللوا مصاعب هذا الغريب خدمة لكتاب الله وتوضيحا لمعانيه .

ولعلنا اذ بحثنا مدققين عن أول مصنف يطالعنا في هذا المجال نجده كتاب « مجاز القرآن » لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، فقد نص السيوطي في كتابـه « الوسائل » أن أول من صنف في غريب القرآن ، أبو عبيدة معمر بن المثنى لأنه جاء بعد قتادة بن دعامة السدوسي المتوفي ١١٧ هـ وأبي عمرو بن العلاء

المتوفي ١٥٤ هـ ، وهما لم يخلفا لنا أثرا مكتوبا ، وانما كانت الأخبار تنقل عنهما مشافهة [٣٥] .

وهذا الكتاب وان كان يحمل اسم المجاز ، فهو في حقيقة أمره كتاب يدور حول الغريب من الكلمات القرآنية ، وتفسير هذا الغريب بالشعر وكلام العرب .

وبعد هذا الكتاب ظهرت كتب أخرى في الغريب مثل « تفسير غريب القرآن » لابن قتيبة [٣٦] وكتاب « لغات القرآن » [٣٧] لأبي حيان الأندلسي ، وككتاب « اللغات في القرآن » لإسماعيل بن عمرو [٣٨] وانظر كتب غريب القرآن في الفهرست لابن النديم تجدها عديدة .

ومن الحق أن أقرر في هذا البحث أن هذه اللهجات العربية التي وردت في القرآن الكريم لم تطغ على لهجة قريش ، فمعظم كلمات القرآن الكريم قرشية ، ولكنى أظلم الحقيقة حينما أقول : إن القرآن الكريم فرض لهجة قريش على قبائل العرب وألزمهم القراءة بها ، ذلك أمر يخالف منطوق الحديث : انما أنزل القرآن على سبعة أحرف ، وأظلم الحقيقة مرة أخرى لو قلت إن جميع الكلمات القرآنية قرشية بدليل ما قدمت من كلمات وردت في هذا الكتاب العزيز غير قرشية على أنه من ظلم الحقيقة مرة ثالثة أن أدعي أن اللهجة القرشية تختلف اختلافا كبيرا عن غيرها من لهجة العرب ذلك أمر لا نقبله للأمور الآتية :

١- معرفتنا باللهجة القرشية غير كاملة ، فليس لنا معجم يوضح رصيدها من الكلمات ، حقا إن هناك دراسات دارت حول خصائص اللهجات ، ولكنها محاولات تخطئ وتصيب ، وليس لها من المراجع التي تعتمد عليها غير المعاجم ، وجمعها لم يكن على منهج علمي سليم ، فلم تحاول أن تصنف القبائل ، وتنسب كل لفظ إلى مصدره اللهم الا اشارات معدودة لا تغني شيئا في مجال الدراسات على أن السيوطي في « المزهر » يؤكد أن « الذين نقلت عنهم اللغة العربية وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس ، وتميم وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ ، وعليهم اتكل في الغريب ، وفي

الأعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة »[٣٩] .

ومن حقي بناء على هذا أن أقرر : أن لهجة قريش مختلطة بغيرها من اللهجات الأخرى العربية . وأن ميزان الفصل للحكم في هذه القضية لم يصنع بعـد .

٢- من قال إن قريشا أغلقت على نفسها باب الهجرة أو الرحلة من مكان إلى آخر وذلك ببعدها عن الاحتكاك بغيرها من اللهجات الأخرى ، فتسلم لها فصاحتها ، ويصان لها لسانها . . ؟

ان هذا القول مخالف لمنطق القرآن الكريم الذي ينص على أن لقريش رحلتين ، رحلة الشتاء والصيف ، وناهيك بهذه الرحلات ، أليس فيها كلمات تتبادل ؟ أليس فيها مسميات جديدة لم تعهدها قريش في لهجتها ؟ ألا يؤثر الكلام بعضه في بعض ؟ إن قوانين تصارع اللهجات تثبت هذه الحقيقة ، وهي أنه ما دام هناك اختلاط فهناك احتكاك لغة بلغة ، ولهجة بلهجة ، وأسلوب بأسلوب مما لا يجعل القول بصيانة هذه اللهجة في هذه الحالة قولا صائبا .

هذا فضلا عن الاحتكاك اللغوي والأدبي في أسواق العرب التي كانت تقام في الجاهلية ولا تنسى ما يفعله موسم الحج من تأثير لغوي كبير ، يقولون : إن قريشا كانت تأخذ من هذه القبائل الموفدة أو التي تختلط بها في رحلاتهم ما خف وقعه على مسامعهم من الألفاظ الرقيقة والكلمات العذبة الموسيقية ، وعلى مدى السنين تكونت لهجتهم ، ان صح ذلك فهو دليل على أن لهجة قريش خليط من لهجات عديدة تمثل اللهجات العربية في الجزيرة العربية ، ومن ثم نزل القرآر الكريم بها ، لأنها اللهجة التي تتمثل فيها لهجات العرب ولا غرو حينئذ أن تكون اللهجة القرشية التي نزل بها الصورة الحية في مجال تحدى العرب جميعا أن يأتوا بمثله .

وهذا القول في نظرى قريب الى الصواب ، لأن لهجة قريش انتخبت من جميع اللهجات ، ولكن حينما نقول : أن لقريش لهجة خاصة في ألفاظها ، وتراكيبها تختلف عن لهجات العرب المنتشرة في الجزيرة ، وأن القرآن الكريم

نزل بها وحدها فذلك أمر لا يقبله العقل ، لأن في القرآن الكريم كما قدمت سابقا كلمات كثيرة ليست قرشية الأصول كما نصت على ذلك كتب الغريب ، وكتب المعاجم .

٣- القبائل العربية قبل الاسلام لم تكن تعيش في عزلة ، ومن ثم كانت لهجاتهم جميعا متقاربة ، يفهم بعضهم بعضا حتى القبائل التي كانت تعيش في شمال الجزيرة لم تبتعد في لهجاتها كثيرا عن القبائل التي كانت تعيش في جنوب الجزيرة ، بل لا أتجاوز الحقيقة إذا قلت : إنها لغة واحدة في صميمها ، ولا يعدو الاختلاف أن يكون الا اختلافا يسيرا في صفات الحروف من جهر وهمس ، وتفخيم وترقيق وهمز وتسهيل ، وهذا أمر طبيعي يقتضيه التطور اللغوي .

ومما يؤيد ذلك وفد الحجاز عند سيف بن ذي يزن ملك اليمن ، فقد اتجه هذا الوفد وعلى رأسه سيد قريش عبد المطلب بن هاشم ، الى ملك اليمن يخطب ببيانه القرشي ، وسيد اليمن يصغي اليه ، ويستمع الى شاعر الوفد أمية بن أبي الصلت ، ويفهم ما يقول في غير غرابة أو غموض[٤٠] .

ومالي أذهب بعيدا ونحن في عالمنا العربي نتكلم بلهجات عديدة لا شك هي من أمٍّ واحدة هي العربية التي تطورت إلى هذه اللهجات ، ولم يكن هذا الاختلاف في غير الأشكال .

ويعجبني في هذا الموقف كلمة الدكتور « غوستاف لوبون » في كتابه « حضارة العرب » حيث يقول : « واللغة العربية من أكثر اللغات انسجاما وهي مختلفة اللهجات لا ريب في سوريا وجزيرة » العرب ، ومصر والجزائر وغيرها .

ولم يكن هذا الاختلاف في غير الأشكال ، فترى المراكشي يفهم بسهولة لهجة المصريين ، أو لهجة سكان جزيرة العرب مثلا ، مع أن سكان القرى الشمالية الفرنسية لا يفهمون كلمة من لهجات سكان القرى الجنوبية في فرنسا » .

وقد نقل « لوبون » كلمة الرحالة « بركهارد » الذي يعد حجة في هذا الموضوع فقال : « نجد اختلافا كبيرا لا ريب في لهجات اللغة العربية العامية أكثر من أية لغة أخرى على ما يحتمل ، ولكنه لا يصعب عليك أن تفهمها جميعا

اذا ما تعلمت إحداها ، وذلك على الرغم من اتساع البلدان التي يتكلم أهلوها بهـا »[41] .

أما كلمة أبي عمرو بن العلاء : « وما لسان حمير بلساننا ، ولا لغتهـم بلغتنا » تلك الكلمة المأثورة عـن أبي عمرو ، والتي ترددت في كتب الرواة - فأحسن تفسير لاشكالها تفسير الدكتور الحوفي في كتابـه « الحيـاة العربية من الشعر الجاهلي » حيث يقول : « ان اللغتين عربيتان ، ولكن التطور ، والمكان ، والزمان ، والأحداث ، والألسنة الخ قد شققت من اللغة الواحدة لهجتين ، بدليل قوله (في رواية أخرى) ولا عربيتهم بعربيتنا ، والعرب يطلقون على اللهجة اللسان »[42] .

٤- على أن مقياس الفصاحة وقف أمامه العلماء حيارى ، فابن فارس يشيد بلهجة قريش أو بلغتها حيث يقول : « إن قريشا أفصـح العرب ألسنة وأصفاهم لغة ، ذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب واختار منهـم محمدا صلى الله عليه وسلم فجعل قريشا قطان حرمة ، وولاة بيته ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون الى قريش في دارهم ، وكانت قريش مع فصاحتها ، وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها اذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم . فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب »[43] والبصريون يشترطون في الفصاحة أن تصدر من العرب الخلص الذين لم تؤثر فيهم الحضارة ، واعتصموا بالبادية من الاختلاط بغيرهم .

ومن ثم كانوا « يفتخرون على الكوفين بأنهم يأخذون اللغة عن حرشـة الضِّباب ، وأكلة اليرابيع ، على حين يأخذها الكوفيون من أكلة الشواريز وباعة الكواميخ[44] .

مع أن لغتنا العربية التي تتمثل في المعاجم جمعت في معظمها بروايات البصريين وحسبنا أن نذكر في هـذا المجال أن أول عمـل معجمي قام به الخليل بن أحمد عميد مدرسة البصرة هو معجم العين .

ومن الحق أن نذكر بجانب ذلك أننا لو طبقنا منهج البصريين في أخذ اللغة لتجنبنا لغة قريش ، لأنها خليط من اللهجات كما قلت سابقا ، ولأن أصحابها كانوا يقومون برحلات عديدة صيفا وشتاء الى أطراف الجزيرة العربية في اليمن ، وفي الشام ، ولكن الحق يفرض علينا سلطانه في هذه القضية ، وهو أن لغة القرآن الكريم - كما يقول الفراء - أفصح أساليب العربية على الاطلاق[٤٥] .

من أجل ذلك أحب أن أبين هنا أن لغة القرآن الكريم لم تكن لغة لهجة واحدة ولكن من كمالها أن تكون مشتملة على كثير من لغات العرب الأخرى ليكون التحدي أتم والمعجزة أبلغ .

وقد لمس هذا المعنى الإمام ابن الجزري فأصاب المحز حينما قال : « لو جاء القرآن الكريم كله بالأفصح لكان على غير النمط المعتاد في كلام العرب من الجمع بين الأفصح والفصيح ، فلا تتم الحجة من الإعجاز اذ يقال مثلا : إنه جاء بما لا قدرة للعرب على جنسه ، كما لا يصح أن يقول البصير للأعمى : قد غلبتك بنظري ، لأن الأعمى يقول له : انما تتم لك الغلبة إذا كنت قادرا على النظر ، وكان نظرك أقوى من نظري ، أما اذا فقد أصل النظر فكيف تصح المعارضة ؟ »[٤٦] .

ولعلي بعد هذا العرض أكون قد وفيت الموضوع حقه في قضية غريب القرآن الكريم وآمل أن أكمل هذا البحث بقضية أخرى تعالج ما ورد في القرآن الكريم من كلمات أعجمية فإلى اللقاء في مقال آخر ان شاء الله .

مراجع البحث

١ - النحـــل : ١٠٣ .
٢ - الشعـراء : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .
٣ - يـوسف : ٢ .
٤ - الرعـــد : ٣٧ .
٥ - طـــه : ١١٣ .
٦ - فصلـت : ٣ .
٧ - الشورى : ٧ .
٨ - الزخرف : ٣ .
٩ - الأحقاف : ١٢ .
١٠- من مقال المرحوم الدكتور النجار : مجلة الأزهر مجلد ٢٣ ص ٤٩ .
١١- المزهر جـ ١ صا ١٢٨ مطبعة السعادة .
١٢- الزينة ج ١ ص ١٤٦ .
١٣- الاتقان جـ ١ ص ٥٩ .
١٤- الزينة جـ ١ ص ١٤٦ .
١٥- الأنعام : ٨٢ .
١٦- لقمان : ١٣ .
١٧- مجلة الفكر الاسلامي ، العدد التاسع .
١٨- المسائل لابن قتيبة : ورقة - ٤ : مخطوط .
١٩- النساء : ٨٥ .
٢٠- مقدمتان في علوم القرآن ص ١٨٣ .
٢١- عبس : ٣١ .
٢٢- مقدمتان في علوم القرآن ص ١٨٣ .
٢٣- الطراز جـ ٣ ص ٢١٩ .
٢٤- اعجاز القرآن ص ٧٤ .
٢٥- المعارج : ٣٧ .
٢٦- المائـدة : ٣٥ .
٢٧- الأنعام : ٩٩ .
٢٨- الرعـد : ٣١ .
٢٩- طــه : ١١٩ .
٣٠- الاتقان جـ ١ ص ١٣٣ .
٣١- الأدب الجاهلي ص ١٠٩ .
٣٢- مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٦١ .

٣٣- مفتاح السعادة جـ ٢ ص ٤١٥ .
٣٤- اللغات في القرآن ص، ٢٠ ، ص ٢١ .
٣٥- الوسائل في مسامرة الأوائل ص ٦١٢ .
٣٦- مطبوع بتحقيق الأستاذ سيد صقر .
٣٧- مخطوط التيمورية ٧٤ لغة .
٣٨- مطبوع .
٣٩- المزهر جـ ١ ص ١٢٨ ، الاقتراح : ص ٢٤ .
٤٠- انظر قصة هذا الوفد والتعليق عليه في كتاب « مولد اللغة » لأحمد رضا العاملي ص ٥٦ .
٤١- حضارة العرب ص ٥٣٢ .
٤٢- جـ ١ ص ٤١ .
٤٣- المزهر جـ ١ ص ٢١٠ .
٤٤- حرشة الضباب = الصيادون - اليرابيع = جمع يربوع وهى دويبة . الشواريز الألبان الثخينة الكواميخ = المخللات تشهى بها الطعام .
٤٥- العرتبة يوهان فك ص ٥ .
٤٦- نقل هذا النص من مقال للمرحوم الشيخ عبد الجواد رمضان نشر بمجلة الأزهر المجلد ٢٢ ص ٦٠٠ .

قضية الكلمات الأعجمية
في القرآن الكريم

قضية الكلمات الأعجمية في القرآن الكريم

في

ضوء الدراسة والبحث

لم تكن اللغة العربية قبل نزول القرآن الكريم لغة ضعيفة في مفرداتها ، وتراكيبها ، وألفاظها ومعانيها ، بل كانت لغة تحمل في طياتها عناصر الحياة ، وقوة التعبير ، وجمال الكلمة ، ورشاقة الألفاظ ، وغزارة المعاني .

أجل ، لم تكن اللغة العربية بلغت سن الشيخوخة ، يدب في أوصالها الوهن ، ويعتريها الضعف لتلفظ أنفاسها الأخيرة ، ولكنها كانت في طور الشباب ، قوية فتية ، تسحرك بألفاظها ، وتدهشك بمعانيها ، وتأخذ بمجامع قلبك ، حينما تصغي اليها في مجالات التعبير المختلفة : شعرا وخطابة ، ومحاورة ، وأمثالا .

وهذه اللغة التي بلغت القمة في التعبير عن المعاني المختلفة ، المحسوسة أو المعقولة ، في ألفاظ جزلة ، وعبارات متآخية ، وكلمات عذبة ، هذه اللغة نزل بها القرآن الكريم ، ليتحدى من يملكون ناصية هذه اللغة في مجال فصاحة الكلمة ، وبلاغة المعنى ، وجمال الأسلوب ، « فأقر جميعهم بالعجز وأذعنوا له بالتصديق ، وشهدوا على أنفسهم بالنقص إلا من تجاهل منهم وتعامى ، واستكبر وتعاشى ، فحاول تكلف ما قد علم أنه عنه عاجز ، ورام ما قد تيقن أنه عليه غير قادر ، فأبدى من ضعف عقله ما كان مستورا ، ومن عي لسانه ما كان مصونا ، فأتى بما لا يعجز عنه الضعيف الأخرق ، والجاهل الأحمق ، فقال : والطاحنات طحنا ، والعاجنات عجنا ، فالخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ، ونحو ذلك من الحماقات المشبهة دعواه الكاذبة »[1] .

---

* نشر في مجلة الوعي الاسلامي – نوفمبر سنة ١٩٧١ .

واستطاعت اللغة العربية أن تستقي من هذه المعجزة الخالدة ما أعانها على التطور العجيب في صيغها وتراكيبها ومفرداتها ، وأساليبها ، فبلغت بالقرآن الكريم درجة من الرقي ليس بعدها درجة .

وقد لفتت هذه المكانة التي وصلت اليها العربية أنظار كثير من المستشرقين المتعصبين منهم وغير المتعصبين ، فهذا (آرنست رينان) يقول في كتابه : (تاريخ اللغات السامية) ما نصه : « من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية ، وتصل الى درجة الكمال وسط الصحراء عند أمة من الرحل تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ، ودقة معانيها ، وحسن نظام مبانيها ، ومن يوم علمت ظهرت لنا في حلل من الكمال الى درجة أنها لم تتغير أى تغيير يذكر ، حتى أنها لم يعرف لها في كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة »[٢] ، وأعجبني ما كتبه (جون فرن) في قصة خيالية أشاد فيها بلغة القرآن ، ذلك لأنه بنى قصته الخيالية (على سياح يخترقون طبقات الكرة الأرضية حتى يصلوا ، أو يدنوا من وسطها ، ولما أرادوا العودة الى ظاهر الأرض بدأ لهم أن يتركوا هنالك أثرا يدل على رحلتهم ، فنقشوا على الصخر كتابة باللغة العربية ، ولما سئل (جول فرن) عن وجه اختياره للغة العربية قال : انها لغة المستقبل ، ولا شك أنه يموت غيرها ، وتبقى حية حتى يرفع القرآن نفسه »[٣] .

ولما كانت لغة القرآن الكريم لغة التحدي والاعجاز على هذا المستوى الرفيع من البلاغة والفصاحة ، فاني لا أستطيع أن أقبل ما يدعيه بعض العلماء والرواة من أن القرآن اتكريم اشتمل على كلمات أعجمية ، ليست عربية الصنع ، وقبل أن أعرض رأيي في هذه القضية أرى أن أبسط آراء العلماء حولها ، ليكون القارئ على بينة من أمرها . ثم أختم بحثي برأيي الذى أعتقده في هذا الموضوع :

أ - أما الكلمات الأجنبية التي ثار حولها الجدل ، واحتدم النقاش ، فهذا بعض منها :

١ - ما ورد بلسان الحبشة : قال الطبري : حدثنا عنبسة عن أبى اسحاق ، عن أبى الأحوص عن أبى موسى : (يؤتكم كفلين من رحمته)[٤] قال : الكفلان = ضعفان من الأجر بلسان الحبشة .

وعن أبي اسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : « إن ناشئة الليل »[٥] قال : بلسان الحبشة : اذا قام الرجل من الليل ، قالوا : نشأ .

= وعن أبى اسحاق عن أبى ميسرة : « يا جبال أوبى معه »[٦] سبحى بلسان الحبشة .

وحدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله : « فرت من قسورة »[٧] قال : هو بالعربية : الأسد ، وبالفارسية : شار ، وبالحبشية قسورة »[٨] .

وقال السيوطي في الاتقان = الأواه = الموقن بلسان الحبشة . الدري : المضئ : بلسان الحبشة (الجبت) : اسم الشيطان بلسان الحبشة[٩] . وقال الزركشي في البرهان في علوم القرآن : المشكاة : الكوة بلسان الحبشة[١٠].

٢ – ما ورد بلسان الفرس :

الأباريق : جمع ابريق : التنور – الدينار : السرادق – الاستبرق : الزنجبيل .

٣ – ما ورد باللسان الروماني :

الرقيم : اللوح ، القسطاس : العدل ، طفقا : قصدا .

٤ – ما ورد باللسان العبرى :

. كيل بعير = البعير : الحمار . الأليم – المؤلم . درست = قرأت . هدنا = تبنا . راعنا = كلمة سب .

الرحمن : ذهب المبرد وثعلب الى أنه عبراني ، وأصله الخاء المعجمة .

٥ – ما ورد باللسان القبطي :

الملة الآخرة = الأولى : والقبط يسمون : الآخرة : الأولى ، والأولى : الآخرة . بطائنها = ظواهرها : وراءهم ملك : أمامهم . اليمّ = البحر .

٦ – السريانية : الطور جبل .

٧ – اليونانيـــة : سريا = النهر الصغير .

٨ – الزنجيـــة : حصب جهنم : حطب جهنم : وقولوا حطة : صوابـا .

٩ – النبطيـــــة : « رهوا : سهلا . سيدها : زوجها بلسان النبط ، قال أبو عمرو : لا أعرفها في لغة العرب .

١٠ – كلمات مختلف في نسبتها :

السجل : قيل حبشي ، وفي المحتسب لابن جنى : فارسى معرب .

السندس : قيل : رقيق الديباج بالفارسية ، وقيل الرقيق من الستر بالهندية .

وقد أفرد السيوطى هذه الكلمات الأعجمية بالتصنيف ، وسماها (المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب) . وقد نظم تاج الدين السبكي منها سبعة وعشرين لفظا في أبيات جاء فيها :

١١–كلمات أعجمية غير منسوبة[١١] :

السلسبيل ، وطه ، وكورت ، بيع ... روم ، وطوبى ، وسجيل ، وكافور
والزنجبيل ، ومشكاة سرادق مع ... استبرق ، صلوات سندس طور
كذا قراطيس ربانيهم ونمـــارق ... ثم دينار ، القسطاس مشهـــور
له مقاليد فردوس يعـــد كـــذا ... فيما حكى ابن دريد فيــه تنور

وقد ذيل الحافظ بن حجر على هذه الأبيات ، وذيل السيوطي عليهـا بالباقي وهي بضع وستون ، فتمت أكثر من مائة لفظة[١٢] .

ب) أراء العلماء حول هذه الكلمات :

١– رأى من يقول إنها أعجمية :

يستند هؤلاء في هذا الرأى الى ما روى سعيد بن جبير قال : قالت قريش : لولا أنزل هذا القرآن على رجل (أعجميا ، وعربيا) فأنزل الله تعالى ذكره :

« ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا : لولا فصلت أياته أأعجمى وعربي ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » [١٣] فأنزل الله بعد هذه الآية في القرآن بكل لسان [١٤]

وعن أبي ميسرة قال : في القرآن من كل لسان » [١٥]

ومن العلماء الذين يرون هذا الرأى الامام (الجويني) ، ففي رأيه أنه لا يستنكر وقوع المعرب في القرآن الكريم ، بل يرى أن له فائدة في مجال البلاغة والبيان ، قد لا يشعر بها كثير من الناس ، لأنها تخفى عليهم بما تشتمل عليه من دقة البيان ، وسر الإعجاز . استمع اليه يقول مدافعا عن كلمة (استبرق) ما نصه : « فإن قيل : ان استبرق ليس بعربي ، وغير العربي من الألفاظ دون العربي في الفصاحة والبلاغة فنقول : لو اجتمع فصحاء العالم ، وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة ، ويأتوا بلفظ يقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا عن ذلك ، وذلك ، لأن الله تعالى اذا حث عباده على الطاعة ، فإن لم يرغبهم فيهم بالوعد الجميل ، ويخوفهم بالعذاب الوبيل ، لا يكون حثه على وجه الحكمة . . الى أن يقول : ثم ان الوعد بما يرغب فيه العقلاء ، وذلك منحصر في أمور : الأماكن الطيبة ، ثم المآكل ، والمشارب ، ثم الملابس الرقيقة ، وكان ينبغي أن يذكر من الملابس ما هو أرفعها ، وأرفع الملابس في الدنيا الحرير ، ثم إن الثوب من غير الحرير لا يعتبر فيه الوزن والثقل ، وربما يكون الخفيف أرفع من الثقيل الوزن ، وأما الحرير فكلما كان ثوبه أثقل كان أرفع ، فحينئذ وجب على الفصيح أن يذكر الأثقل الأثمن ، ولا يتركه في الوعد ، لئلا يقصر في الحث والدعاء ، ثم إن هذا الواجب الذكر ، إما أن يذكر بلفظ واحد موضوع له صريح ، أو لا يذكر بمثل هذا ، ولا شك أن الذكر باللفظ الواحد الصريح أولى ، لأنه أوجز وأظهر في الفائدة ، وذلك (استبرق) ، فإن أراد الفصيح أن يترك هذا اللفظ ، ويأتي بلفظ آخر لم يمكنه ، لأن ما يقوم مقامه ، أما لفظ واحد أو ألفاظ متعددة . ولا يجد العربي لفظا واحدا يدل عليه ، لأن الثياب من الحرير عرفها العرب من الفرس ، ولم يكن لهم بها عهد ، ولا وضع في اللغة العربية للديباج الثمين اسم ، وإنما عربوا ما سمعوا من العجم ، واستغنوا عن الوضع لقلة وجوده عندهم ، وندرة تلفظهم به ، وأما إن ذكره بلفظين فأكثر فإنه يكون

قد أخل بالبلاغة ، لأنه ذكر لفظين بمعنى يمكن ذكره بلفظ – تطويلٌ ، فعلم بهذا أن لفظ (استبرق) يجب على كل فصيح أن يتكلم به في موضعه ، ولا يجد ما يقوم مقامه [١٦].

٢– رأي من يقول : إنها عربية :

على رأس هؤلاء الامام الشافعي رضي الله عنه ، فقد أنكر كل الإنكار أن تكون هذه الكلمات أعجمية الصنع ، لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين . ولا يمكن أن يصدق العقل ، أو يطمئن القلب إلى مثل هذه الروايات ، التي تدعى أعجمية بعض الكلمات ، فالقرآن الكريم في نظر الامام الشافعي من ألفه الى يائه عربي فصيح ، لم يستعر كلمة من غير لغة العرب ، لأنه ليس في حاجة اليها ، بل أحاط بهذه اللغة احاطة كاملة ، لأنه من صنع الله ، وصنع الله لا يتوقف على معونة في كلمة أو كلمات ، تقدم اليه من مختلف اللغات .

وكان الشافعي صريحا كل الصراحة في هذا الاتجاه ، مؤمنا كل الايمان بهذا الرأي . لدرجة أنه قدم النصيحة خالصة ، حارة ملتهبة لهؤلاء الذين يدعون ما يدعون ليتركوا هذا الانحراف في الرأي ، حتى يسلم لكتاب الله جلاله وسلطانه .

واني أترك المجال للشافعي : ليعرض علينا رأيه ، معزّزاً بالحجة ، مدعما بالبرهان ، قال الشافعي في الرسالة :

« فقال منهم قائل : إن في القرآن عربيا وأعجميا » فرد الامام على هـذا الادعاء بقوله : « والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شئ الا بلسان العرب ، ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا ، وأكثرها ألفاظا ، ولا تعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي » إلى أن يقول :

فان قال قائل : ما الحجة في أن كتاب الله محصن بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره ؟ فالحجة في كتاب الله ، قال الله تعالى : وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » [١٧] فإن قال قائل : فإن الرسل قبل محمد كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة ، وان محمدا بعث الى الناس كافة ، فقد يحتمل أن يكون بعث بلسان قومه خاصة ، ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه ، وما أطاقوا منه ، ويحتمل

يكون بعث بألسنتهم ، فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم ؟ ويرد الشافعي على هذا الاعتراض بقوله .

فإذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض ، فلا بد أن يكون بعضهم تبعا لبعض ، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع .

وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي ، ولا يجوز والله أعلم أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد بل كل لسان تبع للسانه ، وكل أهل دين قبله ، فعليهم اتباع دينه » .

بهذا المنطق القوي رد الشافعي هذا الاعتراض ، ولكنه لم يكتف بذلك فوثق هذا الرد بكتاب الله تعالى في وضوح يبدد الباطل ، وصراحة تكشف البهتان فيقول : وقد بين الله ذلك في غير آية من كتابه : قال الله : « وأنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين »[١٨]، وقال : « وكذلك أنزلناه حكما عربيا »[١٩]وقال : « وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها »[٢٠]وقال : « حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »[٢١]وقال : « قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون »[٢٢].

قال الشافعي : فأقام حجته أنه كتاب عربي في كل آية ذكرناها ، ثـم أكد ذلك بأن نفى عنه جل ثناؤه كل لسان غير لسان العرب في آية من كتابه ، فقال تبارك وتعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذين يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربى مبين »[٢٣].

وقال : « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أعجمـي وعربي »[٢٤]، ويختم الشافعي دفاعه عن كتاب الله تبارك وتعالى بهذه النصيحة العالية فيقول : « فكان تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحة للمسلمين والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه ، وإدراك نافلة خير لا يدعها الا من سفه نفسه ، وترك موضع حظه ، وكان يجمع مع النصيحة لهم قياما بإيضاح حق وكان القيام بالحق ، ونصيحة المسلمين من طاعة الله ، وطاعة

الله جامعة للخير . »[٢٥] .

بهذا الرد المقنع ، وبهذه النصيحة الخالصة دافع الإمام الشافعي عن قضية عروبة هذه الكلمات ، دفاعا حارا لزم فيه المنطق القوي ، والحجة البالغة والدليل القرآني القاطع .

وإني حرصت كل الحرص على تسجيل عبارات الشافعي بنصها في هذا المجال ، لأنها تحمل من حرارة الدفاع عن كتاب الله أكثر مما تحمل عباراتي .

وفي هذا الخط الذي رسمه الشافعي اتجه الامام الطبرى في تفسيره هذا الاتجاه وكأنه بآرآئه التي بسطها في هذه القضية يضع الدلائل الواضحة على صحة رأى الشافعي ، ذلك لأنه يرى أن هذه الكلمات الأعجمية ، اتفقت بألفاظها ومعانيها مع الكلمات العربية ، فليس من المنطق أن نقول : أنها غير عربية بل هي عربية أعجمية : يقول الطبرى : « ولم يستنكر أن يكون من الكلام ما تتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد ، فكيف بمعنيين معا ؟ ويقول أيضا ، كما قد وجدنا اتفاق كثير منهم فيما قد علمناه من الألسن المختلفة . وذلك كالدرهم ، والدينار ، والدواة والقلم والقرطاس وغير ذلك مما يتعب إحصاؤه ، ويمل تعداده .

على أن الطبري لم ينكر هذه الآثار المروية عن ابن عباس ، أو عن سعيد بن جبير ، بل يقرر صحتها من وجه آخر ، غير ما يدعيه هؤلاء الذين يقررون أنها أعجمية فيقول : « فلو أن قائلا قال فيما ذكرناه من الأشياء التي عددنا ، وأخبرنا اتفاقه في اللفظ والمعنى بالفارسية والعربية ، وما أشبه ذلك عما سكتنا عن ذكره ، ذلك كله عربي لا فارسي ، أو قال : بعضه عربي ، وبعضه فارسى ، أو قال : كان مخرج أصله عند العرب ، فوقع الى العجم فنطقوا به ، أو قال : كان مخرج أصله عند الفرس ، فوقع الى العرب فأعربته — كان مستجهلاً إلى أن يقول : بل الصواب في ذلك عندنا أن يسمى عربيا أعجمياً ، أو حبشيا عربيا اذا كانت الأمتان له مستعملتين . إلى أن يقول : « وذلك هو معنى ما روينا عنه القول في الأحرف التي مضت في صدر هذا الباب من نسبة بعضهم بعض ذلك الى لسان

الحبشة ، ونسبة بعضهم بعض ذلك الى لسان الروم ، لأن من نسب شيئا من ذلك الى ما نسبه اليه لم ينف بنسبتة إياه الى ما نسبه إليه أن يكون عربيا » [٢٦].

وتتفق وجهة نظر أبي عبيدة معمر بن المثنى مع الامام الشافعي والطبرى ، فيقول : « نزل القرآن بلسان عربي مبين ، فمن زعم أن فيه غير العربية ، فقد أعظم القول ، ومن زعم أن (طه) بالنبطيه فقد أكبر ، وقد يوافق اللفظ اللفظ ، ويقاربه ، ومعناهما واحد ، وأحدهما بالعربية ، والآخر بالفارسية أو غيرها » [٢٧].

ومع أن أبا عبيدة دافع عن عروبة هذه الكلمات الا أن الامام اللغوي الزبيدي صاحب تاج العروس ينسب الى أبي عبيدة رأيا آخر يوفق بين المانعين والمجوّزين يقول : « قال أبو عبيدة : والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعا وذلك أن هذه الحروف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء الا أنها سقطت الى العرب فأعربتها بألسنتها ، وحولتها من ألفاظ العجم الى ألفاظها ، ثم لما نزل القرآن ، وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال : إنها عربية ، فهو صادق ، ومن قال : عجمية فهو صادق » [٢٨].

جـ - رأي ومناقشة :

في رأيي أننا إذا أردنا أن تصل إلى حل حاسم لهذا الإشكال ، فإنه لا بد من الرجوع الى التاريخ العربي لنستفتيه في هذه القضية التي كثر فيها الجل ، واحتدم النزاع بين العلماء .

اننا اذا رجعنا الى التاريخ ليدلنا على كلمة (عرب) فماذا نجد ؟ نجد اختلافا كبيرا بين رجال اللغة من العرب في مدلول هذه الكلمة ، فقد قال ابن منظور في كتابه الكبير : لسان العرب ما نصه : « واختلف الناس في العرب لم سموا عربا ؟ فقال بعضهم أول ما أنطق الله لسانه بلغة العرب يَعْرُب بن قحطان ، وهو أبو اليمن كلهم ، وهم العرب العاربة ، ونشأ اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام معهم ، فتكلم بلسانهم ، فهو وأولاده العرب المستعربة .

وقيل : إن أولاد اسماعيل نشئوا بعربة ، وهي من تهامة ، فنسبوا الى بلادهـم .

ثم قال صاحب اللسان ، وكل من سكن بلاد العرب ، وجزيرتها ونطق بلسان أهلها فهم عرب ، يمينهم ، ومعدهم [٢٩].

والمستشرقون وعلى راسهم المستشرق (ولفنسون) في كتابه (تاريخ اللغات السامية) : يرى أن كلمة (عرب) كانت مستعملة في اللغة العبرية القديمة لتدل على أهل العربة (الصحراء) أي لنوع خاص من قبائل الجزيرة العربية [٣٠].

ويرى هذا المستشرق أن ما يقال في المعاجم اللغوية العربية من أن هناك فرقا بين كلمتي عربي وأعرابي ، وتخصيص الأولى بسكان المدن ، والثانية بسكان البادية فلم يحدث الا في عصور قريبة من ظهور الاسلام أما قبل ذلك فلم يكن هناك فرق مطلقا ، بل كان كل من الكلمتين يدل على سكان البادية فحسب ، أما سكان المدن والأمصار ، فكانوا ينسبون الى قبائلهم ، ويعرفون بمناطقهم [٣١] .

ويرى مرة أخرى أن كلمة عبري تؤدي المعنى الذي تؤديه كلمة عربي نفسها ، أي أن العبريين هم قبائل رحل كانت تنتقل بخيامها ، وإبلها من مكان الى آخر .

وقد استدل على هذه النظرية بأن كلمة عبرى مشتقة من الثلاثي عبر الذى معناه بالعبرية والعربية : ذهب ، ورحل وقطع مرحلة من الطريق ، أى أن كلمتي عبري وعربي مُشتقّتان من ثلاثي واحد هو عبر ، فحدث قلب مكاني في هذه الكلمة الثلاثية فصارت عرباً » [٣٢] .

وفي رأيي أن المعاجم اللغوية تحدثت عن هذه التفرقة فعلا ، ولكنها مع ذلك نصت أيضا على أن كل من سكن بلاد العرب ، وجزيرتها ، ونطق بلسان أهلها فهم عرب ، يمنيُّهم ، ومعدّهم كما قدمت .

وأما القرن الذي ظهرت فيه هذه الكلمة ، فقد حددته النقوش والآثار التي اكتشفت في عصرنا الحديث ، فقد أشار المستشرق لوبون في كتابه (حضارة العرب) الى آثار الأشوريين التي تحدثت عن العرب فقال : « وذكر العرب قبل الميلاد بتسعمائة سنة في بلاغ (سلما نصر الثاني) وأدت ملكتان عربيتان

فروض الطاعة (تيفلا نفانصر) قبل الميلاد بنحو ثمانمائة سنة ، واستعان (بانيبال) بجيوش عربية عندما رفع راية العصيان » [٣٣].

ويقسم المؤرخون العرب الى قسمين : بائدة ، وباقية . ومن العرب البائدة : عاد ، ومسكنهم الأحقاف في اليمن ، وثمود ، ومسكنهم الحجر في جهة معان ، ومدائن صالح ، وطسم ، ومسكنهم اليمامة ، وعمليق ، ومساكنهم عمان ، والحجاز وتهامة ، وبعض نجد ، وتيماء وبترا ، وفلسطين ، وهم القوم الجبارون الذين تهيبهم قوم موسى اذ قالوا : « إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » ومنهم جالوت الذى قاتل داود ، فقتله داود عليه السلام . وجرهم ومسكنهم باليمن ، ومن بقاياهم قوم هاجروا الى مكة ، وهم أصهار اسماعيل عليه السلام ثم بادوا ، ووبار ، ومسكنهم اليمن في وبار المسماة باسمهم ، وقد هلكوا .

والعرب الباقية : أولاد قحطان ، وأولاد عدنان [٣٤].

وليس ثمة شك في أن هذه القبائل العربية كانت تتكلم بلغة واضحة المعالم بينة السمات ، هذه اللغة هي العربية ، والعربية من أقدل اللغات السامية كما تص على ذلك كتب العبريين ، بل إن العرب أنفسهم أقدم من العبريين في تاريخ وجودهم على هذه الأرض ، وما زالت كتبهم تقص علينا الشئ الكثير من أخبار العمالقة ، وأهل سبأ الذين كانوا يقيمون بجنوب جزيرة العرب .

على أن هذه القبائل العربية لم تغلق على نفسها أبواب مساكنها ، بل اختلطت اختلاطا شديدا بغيرها من أجناس الأمم ، اختلطوا بالمصريين حينما اتحدت قبائل من العمالقة مع عرب سوريا ، واستولوا على مصر في حملة معروفة في التاريخ المصري القديم بحملة الهكسوس سنة ٢٠٠٠ ق . م وعرفوا بالرعاة ، ودام سلطانهم قرونا كثيرة [٣٥].

وتنص الكتابات المسمارية على أن قبائل ثمود التي كانت تقيم في بلاد الحجاز اشتبكت في معارك طاحنة مع سرجون ملك آشور الذي مزقهم كل ممزق ، وأجلى البطون الثمودية الثائرة في بلاد العرب الى مدينة غزة بفلسطين [٣٦].

وقدماء اللحيانيين الذين كانوا يقيمون في الحجاز عرفوا بالقوة والعظمة حتى كان الرومان يستأجرون منهم الجنود والعساكر [٣٧].

ولا شك أن هذا الاختلاط الذي حدث بين العرب وغيرهم في تاريخهم القديم أدى الى التفاعل اللغوي ، مما جعل اللغة تتطور في قوة حتى اكتمل بناؤها واتسعت مفرداتها بفعل هذا الاحتكاك .

ولا أدل على ذلك من اعتراف المستشرقين أنفسهم بهذه الظاهرة فقد قال (ليفنسون) : « إن اللغة العربية تشتمل على عناصر تدل على أنها بصورتها الحالية ، ليست أصلية قديمة ، بل إنها صيغ مرت عليها تقلبات كثيرة وتغيرات في حين أن هذه الكلمات توجد في العبرية أو الآرامية دون أن يظهر عليها شئ من آثار هذا التبديل ، فمثلا كلمة (قول) تؤدي بالعبرية معنى = صوت . أما في العربية فلا تطلق الا على جملة أصوات مجتمعة ، وكذلك (أمر) تدل على الكلام العادي ، وتدل في العربية على الطلب بشدة [٣٨].

وقد استطاعت العربية بما تحمل من عناصر الحياة والتطور أن تؤثر كما تقول روايات المستشرقين أنفسهم (في النبط الآراميين) فكان ذلك من أهم الأسباب التي حملتهم على نسيان لغتهم الآرامية ، وإيجادهم لأنفسهم مزيجا من لغة الآراميين والعرب . ولم يكن هذا المزيج مفهوما عند العرب فأطلقوا عليه الرطانة النبلطية [٣٩].

من هذا العرض السابق أستطيع إن اقول : أن هذه اللغة العربية لغة قديمة تكونت بمرور الزمن ، وعبر التاريخ ، وسارت في طريق التطور بخطى واسعة حتى وصلت الى ما قبل الاسلام الى الذروة من التقدم والرقي ، على حين تجمدت اللغات السامية الأخرى ، لتصبح أثرا بعد عين .

ومن المنطق أن أقول : أن لغة احتكت بغيرها من اللغات الأخرى ، فأثرت فيها ، ووصلت الى هذه الدرجة من التطور لا بد أن تكون موردا لغيرها من اللغات الأخرى ، تمدها بما تحتاج اليه من مفرداتها الواسعة ، وبمرور الزمن أصبحت هذه المفردات العربية لبنات في بناء هذه الأمم ، ولا يصح في مجال التفكير السليم أن نقول إن القرآن الكريم استعارها من هذه اللغات ، اذا قلنا

ذلك ، فهذا تحكم لا تسنده الا هذه الأخبار التي ذكرها الرواة ، وهي أخبار واهية تتعارض مع صريح القرآن الكريم حينما يقول : إنا أنزلناه قرآنا عربيا [٤٠] .

ومن العجب حقا أن ندعي أن مفردات اللغة العربية التي عاشت هذا العمر الطويل وتطورت هذا التطور الكبير عبر التاريخ ، وعبر الأجيال ، تمثلها هذه المعاجم اللغوية ، أو هذه الروايات التي جمعها لنا رواة العرب حينما بدءوا يدوّنون اللغة .

أجل لقد أحس بهذه الحقيقة راوية من كبار الرواة ، وعميد من عمداء اللغة إنه أبو عمرو بن العلاء الذي يقول : « ما انتهى إليكم مما قالته العرب الا أقلة ولو جاءكم لجاءكم علم وافر ، وشعر كثير » [٤١] .

على أن العقل لا يمكن أن يسلم بأعجمية هذه الكلمات من ناحية أخرى ، فهذه الكلمات كما يقول السيوطي : أكثر من مائة لفظة ، وهو عدد قليل جدا بالنسبة الى كلمات القرآن الكريم التي تبلغ في رواية الفضيل بن شاذان عن عن عطاء بن يسارٍ : سبع وسبعون ألف كلمة ، وأربعمائة وسبع وثلاثون كلمة [٤٢] .

فما السر أذا في أن يمد القرآن الكريم يده لأخذ هذه الكلمات المائة من لغات العجم . هل اللغة العربية فقيرة إلى هذا الحد ، فتطلب المعونة بهذه الكلمات ، كيف ذلك ؟ وهي اللغة التي لا تستطيع أن تجاريها لغة أخرى في مجال الاتساع ، كيف ذلك ؟ وهي اللغة التي تحفظ للمعنى الواحد المئين من الألفاظ .

استمع الى السيوطي يقول في المزهر : « إن العجم لا تعرف للأسد أسماء عير اسم احد ، فأما نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم .

وقال حدثني أحمد بن محمد بن بندار قال : سمعت أبا عبد الله بن خالويه الهمذاني يقول : جمعت للأسد خمسمائة اسم ، وللحية مائتين .

ويروي ابن فارس قصة الأصمعي والرشيد ، وخلاصتها . « أن الرشيد سأل الأصمعي عن شعر لابن حزام العكلي ، ففسره ، قال : يا أصمعي ، إن الغريب عندك لغير غريب ، قال : يا أمير المؤمنين ، الا أكون كذلك ، وقد

حفظت للحجر سبعين اسما [٤٣] .

ويجدر بي أن أعزز رأيي هذا برأيين لرجلين من أعلام الفكر في العالم العربي في وقتنا الحاضر ، وهما المرحومان الدكتور عبد الوهاب عزام ، والشيخ أحمد شاكر .

أما الدكتور عزام فيرى : أن اللغات السامية وجاراتها تبادلت ألفاظا في عصور متطاولة قبل الإسلام ، فدخل في الفارسية مثلا ألفاظ سامية ، فرب لفظ فارسي يظن أصلا للفظ عربي هو في الحقيقة لفظ سامي تسرب الى الفارسية في العصور القديمة ، وقد بعد بالباحثين عن الصواب ظنهم أن العربية لم تهب اللغات الأخرى من ألفاظها الا في العصور الاسلامية [٤٤] .

وأما المرحوم الشيخ أحمد شاكر ، فيرى : أن العرب أمة من أقـــدم الأمم ، ولغتها من أقدم اللغات وجودا ، كانت قبل ابراهيم واسماعيل ، وقبل الكلدانية والعبرية والسريانية وغيرها ، بـله الفارسية ، وقد ذهب منها الشيء الكثير بذهاب مدنيتهم الأولى قبل التاريخ ، فلعل الألفاظ القرآنية التي يظن أن أصلها ليس من لسان العرب ، ولا يعرف مصـدر اشتقاقها لعلها من بعض ما فقد أصله [٤٥] .

وبعد ، فلعلى بهذا العرض لهذه القضية استطعت أن أضع النقاط عـلى الحروف دفاعا عن كتاب الله العربي ، هذا من ناحية ، ولعلي من ناحية أخرى أسد الباب أمام هؤلاء اللغويين المحدثين الذين يدعون أن القرآن الكريم سار على منهج التعريب ، حينما أخذ عن الفارسية والحبشية وغيرهما .

ونحن نلجأ إلى التعريب ، لأننا لم نعش في أعماق اللغة ، لنستخرج الكلمة الدالة ، واللفظة المعبرة ، وذلك لعجزنا عن الإحاطة باللغة من ناحية ، ولإيثار مد اللغة العربية بكلمات جديدة سيرا على مبدأ التطور اللغوي من ناحية أخرى . إن صح لنا أن نعرب الوف الكلمات الوافدة في عصر تقاربت فيه اللغات ، وتمازجت الأفكار ، فانه لا يصح مطلقا أن نتخذ من القرآن ذريعة نعتمد عليها في شرعية هذا الغزو الأجنبي ، فإنه كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه .

مراجع البحث

١ – أنظر : مقدمة تفسير الطبري : ٦/١ .
٢ – نقل هذا النص من كتاب : « دراسات في العربية وتاريخها » للشيخ محمد الخضر حسين ص ١٩ .
٣ – المرجع السابق نفسه ص ١٤ .
٤ – الحديد : ٢٨ .
٥ – المزمل : ٦ .
٦ – سبأ : ١٠ .
٧ – المدثر : ٥١ .
٨ – الطبري ج ١ ص ٨ .
٩ – الاتقان ج ١ ص ١٣٨ .
١٠– البرهان في علوم القرآن ص ٢٨٧ و ٢٨٨ .
١١– انظر في هذا الموضع : الطبري ج ١ ص ٦ ، الاتقان : ج ١ ص ١٣٨ ، البرهان : ص ٢٨٧ و ٢٨٨ .
١٢– الاتقان ج ١ ص ١٤٠ ، مفتاح السعادة ص ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ .
١٣– فصلت : ٤٤ .
١٤– الطبري ج ١ ص ٨ .
١٥– المرجع السابق والصفحة .
١٦– الاتقان ج ١ ص ١٣٦ ، ١٣٧ .
١٧– ابراهيم : ٤ .
١٨– الشعراء : ١٩٢–١٩٥
١٩– الرعد : ٣٧ .
٢٠– الشورى : ٧ .
٢١– الزخرف : ١– ٣ .
٢٢– الزمر : ٢٨ .
٢٣– النحل : ١٠٣ .
٢٤– فصلت : ٤٤ .
٢٥– الرسالة : ٥٠ .
٢٦– الطبري ج ١ ص ٩ .
٢٧– مجاز القرآن ج ١ ص ١٨ .
٢٨– تاج العروس ص ٩ .
٢٩– لسان العرب : مادة : عرب .
٣٠– تاريخ اللغات السامية : ص ١٦٤ .
٣١– المرجع نفسه والصفحة .

٣٢- المرجع نفسه ص ١٦٥ .
٣٣- حضارة العرب ص ٩١ .
٣٤- تاريخ الأدت لحفنى ناصف ٨ .
٣٥- حضارة العرب ص ٩٠ .
٣٦- حضارة العرب ١٧٤ .
٣٧- المرجع نفسة ص ١٧٤ .
٣٨- تاريخ اللغات السامية ١٦٩ .
٣٩- المرجع نفسه ص ١٧٣ .
٤٠- يوسف : ٢ .
٤١- الاقتراح ٢٧ .
٤٢- البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٤٩ .
٤٣- المزهر ج ١ ص ٣٢٥ .
٤٤- مقدمة المعرب للجواليقي : ص ٤ .
٤٥- من مقدمة الشيخ شاكر ص ١٣ .

من دراسات المستشرقين
حول القرآن الكريم

من دراسات المستشرقين حول القرآن الكريم

التقاء الثقافات بين الأمم المختلفة ظاهرة معروفة سجلها التاريخ في صفحاته الخالدة ، وهذا أمر طبيعي ، لأن الفكر الانساني يدور في فلك واحد ، هو الانسان نفسه ، من حيث ارتباطه بالحياة ، من جيث حاجياته ومطالبه ، من حيث تقدمه وتطوره ، من حيث نظرته الى الحياة ، وفهمه لطبيعة الوجود ، ومن حيث ارتباطه بقوة هي أعظم من قوته ، تسيطر عليه ، وترسم له خطوط رسالته في الحياة .

ولما فتح المسلمون هذه البلاد العديدة ، باسم العقيدة ، وباسم الاسلام ، لم يبخلوا بثقافتهم الاسلامية على البلاد التي فتحوها ، فقدموا لهم من زادها الفكري ما أنار لهم جوانب الحياة ، فكرا وعقيدة سياسة واجتماعا ، أدبا وثقافة اصلاحا وتهذيبا . .

ففي بلاد الأندلس مثلا تحتل الثقافة الاسلامية المكان الأعلى في نفوس أبناء هذه البلاد ، مما هال أحد المفكرين الأسبان ، فكتب يقول :

« إن أرباب الفطنة والتذوق – سرهم رنين الأدب العربي ، فاحتقروا اللاتينية ، وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها وانهم يعجون بشعر العرب ، وأقاصيصهم ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لادحاضها والرد عليها ، بل لاقتباس الأسلوب العربي الفصيح ، فأين اليوم من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والانجيل غير رجال الدين . الى أن نقول . . . إن الجيل الناشئ من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدبا أو لغة غير الأدب العربي واللغة العربية وأنهم ليلتهمون كتب العرب ، ويجمعون منها المكتبات بأعلى الأثمان »[1] .

ومن الأندلس سطع نور الحضارة الاسلامية على أوربا ، فأنارت أمامها الطريق الى الحضارة الأوربية التي نمت وتطورت فغزت آفاق الفضاء .

---

* نشر في مجلة الوعي الاسلامي – يونيو سنة ١٩٧٠ .

١ – الاسلام والمستشرقون : الأستاذ زكريا هاشم ص ١٧ : طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٩٦٥ م .

ولما ضعف المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها تطلع الاستعمار باسم هذه الحضارة الى السيطرة على بلادهم ، واغتصاب ثرواتهم ، وتبديد ما لديهم من قيم ، وسلب ما بقي لهم من تراث .

على أن التراث الاسلامي ، وهو أثمن ما تملكه الأمة الإسلامية والعربية ، لم ينج من خطر هذا الاستعمار ، بل إن العديد من المؤامرات حيكت حوله ، من من أجل جمعه والاستيلاء عليه ، بأي ثمن ، وبأية طريقة ، ليفقد المسلمون هذا التراث الذي يعتزون به من ناحية وليقدمه لهم المستشرقون بعد ذلك مشوها من ناحية أخرى ، ليكون وسيلة تضليل تشكك المسلمين في هذا التراث لينقطع الخيط الذي يربط الأمة الإسلامية بماضيها التليد ، وأمجادها السالفة فتعيش بلا تاريخ ، وتحيا بلا ماض ، ومن ثم تهتز ثقتها بنفسها ، فتكون كالشجرة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، وقد عثر في مكتبة (دير الشوير) بلبنان على وثائق تثبت هذه الحقيقة ، ومن هذه الوثائق الوثيقة التي تنص على أنه (في سنة ١٦٧١ م أرسل عالي الجناب الملك لويس الرابع عشر رسله الى جميع بلدان الاسلام لشراء المخطوطات ، وزود مبعوثيه بأوامر شريفة الى جميع القناصل الفرنساوية ليضعوا رجالهم وأموالهم في خدمة هذه الغاية)[1] .

أليست هذه الوثيقة تثبت في صراحة ووضوح تآمر الاستعمار الأوربي منذ القرن السابع عشر على تراثنا لتبديده ، أو تشويهه ، أو مسخه ؟ واذا فقدت الأمة تراثها ، فقدت أغلى ما تملك ، بل فقدت نفسها ، ومسحت وجودها من التاريخ .

ولا شك أن تراثنا الاسلامي والعربي مصدره الأول القرآن الكريم ، فهو الينبوع الذي استقت منه المعارف والعلوم ما أمدها بالحياة ، وما بعث فيها الحركة والازدهار .

وهذا القرآن الكريم هو الخطر الأكبر في وجه الاستعمار ، فما دام المسلمون يحافظون على القرآن حفظا وعلما وعملا فان مطامحهم تتحطم على صخرته العاتية ، لأنه قوة تعمل عملها في النفوس ، فتحول الضعف الى قوة ، والعجز الى

---

١ – الاسلام والمستشرقون ص ٢١ .

حركة واليأس الى أمل : وصدق الله العظيم « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعاً من خشية الله » .

من أجل ذلك صاح (فلادستون رئيس الوزارة البريطانية ، وبيده القرآن الكريم في مجلس العموم البريطاني في عهد الملكة فكتوريا وهو يقول : (ما دام هذا الكتاب باقيا في الأرض فلن يقر لنا قرار في بلادهم) .

لهذا فقد أخذ المستشرقون على عاتقهم التشكيك في هذا القرآن الكريم وذلك بترجمته ، وباقامة الدراسات في مجاله .

وحينما بدا لى أن أكتب في هذا الموضوع ، وعشت في المراجع التي كتبت عن المستشرقين في مجال الدراسات الاسلامية راعني هذا المجهود الضخم الذي بذل في ترجمه القرآن الكريم من العربية الى اللغات الأوروبية منذ سنة ١١٤٣ م حيث ظهرت أول ترجمة للقرآن الكريم باللاتينية على يد المستشرق (روبرت أوتشتر) الى يومنا هذا ، وراعني أكثر هذا السيل المتدفق من الدراسات التي دارت حول القرآن الكريم ، أقول : لقد تملكتني الدهشة ، واستبد بي الألم ، كيف جندت هذه النفوس لتحمل هذا العبئ الثقيل ؟ وما السر وراء هذه الجهود ؟ ولماذا وقف علماؤنا متجمدين أمام هذه الأعمال الضخمة ، لِمَ لم تعرض ؟ لم لم تنقد ؟ لم لم تقم حولها الدراسات ، إن الاسلام قوة ويخشى المستعمرون أن يجذب بقوته الكثير من أبناء جلدتهم ، فحاول الكثير منهم أن يشوه هذا الإسلام في مصدره الأول ودعامته الأولى ، وذلك بالإجهاز على كتاب الله .

ومن هؤلاء المستشرقين الذين حملوا معاول الهدم المؤرخ (برايس) الذي قال : (إن احتكاك الاسلام بالحضارة سيقضى عليه ويؤذن بنهايته) .

ومن هؤلاء (لنز) الذي قال : (إن الاسلام قد يبقي اذا ترك لنفسه ، أما اذا احتك بالمدينة الحديثة فإنه يمت لا محالة) .

ومن هؤلاء (بيشون) الألماني القائل : (ان انحطاط المسلمين يرجع الى أسباب متصلة بالاسلام نفسه لعدم موافقته روح التمدن)[1] .

---

١ — من مقدمة كتاب « المستشرقون والاسلام » .

وانتشرت حركة الاستشراق في أوربا وأمريكا ، وما زالت في نمو مستمر وما زالت المطابع ، ودور النشر تخرج لنا الكثير من تراثنا العربي والاسلامي محققا بيد هؤلاء المستشرقين ، وأن الكثير منه قدموه لنا ناقص التكوين أو مشوه الولادة ، أو محشواً بالأباطيل .

والذي يدعو الى العجب حقا أن المثقفين العرب الذين تتلمذوا على هؤلاء المستشرقين عاشوا بأفكارهم ، لم يحاولوا أن يجددوا ، لم يحاولوا أن يردوا الحق الى نصابه ، بل كانوا مفتونين بآراء هؤلاء المستشرقين يرددونها من غير وعي ، كأنها قرآن منزل لا يقبل النقاش أو الجدل .

فباسم حرية التفكير التي يدعونها تحطمت المقاييس ، وأوشك التراث على الضياع مع أن حرية التفكير التي تقوم على المنطق ، بعيدة عن الهوى ، بريئة من النوايا السيئة لا تتعارض مع الإسلام ، بل لا أبالغ إذا قلت إنها مبدأ من مبادئه ودعامة من دعائمه ، لأن الإسلام ، أتاح للعقل الإنساني هذه الحرية في التفكير لأنه ابن الحياة ، ومن حقه أن يتعرف عليها معرفة كاملة ، وبهذه المعرفة يشتد عوده ، ويتسع ادراكه ، ومن ثم يستطيع أن يتطلع الى آفاق أرحب والى مجالات أوسع بحيث لا يقف عند ظواهر الأشياء ، وانما يتعمق في كنهها ليدرك أسرار الوجود ، وحقيقة الحياة ، وبذلك يساعد الإنسانية في تقدمها وتطورها .

ولو سار المستشرقون في بحوثهم ودراساتهم وراء هذه الغاية لأفادوا الإنسانية ، وقدموا لها المصباح الذي ينير لها دياجير الحياة ، ولكن التعصب الأعمى وقف حائلا بين الكثير منهم وبين هذه الغاية ، فكانت معظم أفكارهم حول الاسلام تحتاج الى تصحيح أو تعديل حتى لا يقع ناشئة المثقفين في حبائلها ، فتلتوي في نفوسهم وسائل التفكير .

وهذا الانتاج الضخم في مجال الدراسات القرآنية الذي أشرت اليه سابقا قد يجهله الكثير من المثقفين العرب مع أن الواجب يقضي أن نفهم حقيقـــة ماضينا وحاضرنا ، وأن نقرأ ما يكتب لنا أو علينا .

من أجل ذلك أحب أن أضع بين يدي القارئ صورة لهذه المجهودات في الدراسات القرآنية التي قام بها المستشرقون ، وهي تتمثل في أمرين هما :

(١) ترجمة القرآن الكريم الى اللغات الأوروبيــة .
(٢) الدراسات التي دارت حول القرآن الكريم .

أولا : ترجمة القرآن الكريم الى اللغات الأوروبية :

كانت أول ترجمة للقرآن الكريم باللغة اللاتينية : وقام بها المستشرق روبرت أوتشتر : في عام ١١٤٣ م وقد كان روبرت أسقفا في اسبانيا ، وتثقف بالثقافة العربية ، واشتغل بالرياضة والفلك ثم صرف عنهما الى ترجمة القرآن باللغة اللاتينية وقد استعان باثنين من العرب في هذه البلاد .

اللغة الفرنسية : وقد ترجم القرآن الكريم باللغة الفرنسية على يد جماعة من المستشرقين الفرنسيين أذكر من هؤلاء : الدكتور (ماردروس) وقد ولد في القاهرة ١٨٦٨ م ، وتعلم في مدرسة الآباء اليسوعيين وترجم القرآن الكريم الى الفرنسية عام ١٩٢٦ م .

= مونتيه : من أصل سويسري ، وانتخب عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق منذ نشأته ، وترجم القرآن الكريم الى الفرنسية ١٩٢٩ م ، ونقلت الترجمة الى اللغة الايطالية فيما بعد .

= أوكتاف بل : ولد في الجزائر حيث تلقى علومه هناك ، وعين مديرا لمعهد الدراسات العليا ، وقد اشترك مع محمد التيجاني في ترجمة القرآن الكريم الى الفرنسية .

= بلاشر : تلقى دروسه الثانوية في الدار البيضاء ، وتخرج بالعربية من كلية الآداب بالجزائر .

ترجم القرآن الكريم الى اللغة الفرنسية في ثلاثة أجزاء طبع باريس ١٩٥٢ م .

اللغة الايطالية :

ومن المستشرقين الايطاليين الذين نقلوا القرآن الكريم الى اللغة الايطالية :
= الأب ماراتش : وقد ولد في ضاحية (لوكا) بايطاليا ، وتعلم العربية ، وترجم القرآن الكريم الى الايطالية ترجمة حرفية سنة ١٦٩١ م .

اللغة الانجليزية :

ومن المستشرقين الانجليز الذين ترجموا القرآن الكريم الى اللغة الانجليزية :

(ج . رودويل) ترجم القرآن الكريم في ٥٦٢ صفحة طبع لندن ١٨٧٦ م .

ادوارد هنري بالمر : ترجم القرآن الكريم سنة ١٨٨٠ م طبع أكسفورد .

جورج سيل : ترجم القرآن الكريم في ٤٧٠ صفحة ١٨٩٢ م يقول الأستاذ نجيب عفيفي : (وقد نجح في ترجمته فذكرها فولتير في القاموس الفلسفي ، وأعيد طبعها مرارا ، الا أنها اشتملت على شروح وحواش ، ومقدمة مسهبة هي في الحقيقة بمثابة مقالة اضافية عن الدين الاسلامي عامة حشاها بالأفك ، واللغو ، والتجريح وقد نقلها الى العربية ابن الهاشم العربي ١٩١٣ م طبع القاهرة)[1] .

ما رمادوك وليم بكثول : ترجم معاني القرآن الكريم سنة ١٩٣٠ م قصد بعدها مصر لمراجعة ترجمته مع بعض العلماء ، وطبعت طبعة ثالثة في ٦٩٣ صفحة طبع لندن ١٩٦٢ م .

ريتشارد بل : ترجم القرآن الكريم سنة ١٩٤١ م وكان جل غرضه من هذه الترجمة تحليل السور المتفرقة بوضع قوانين النقد الأدبي لها .

اللغة الهولندية :

ومن المستشرقين الهولانديين كرامرز .

ترجم القرآن الى الهولندية ١٩٥٦ طبع أمستردام بروكسل .

اللغة الألمانية :

ومن المستشرقين الألمان :

فردريخ شوالي : وهو تلميذ المستشرق نولدكه ، وقد أعاد طبع تاريخ النص القرآني لنولدكه بعد تحقيقه ، والتعليق عليه في مجلدين طبع (ليبزيج ١٩٠٩- ١٩١٩ م) .

نولدكه : أشهر آثاره : أصل وتركيب سور القرآن طبع ١٨٥٦ م ثم أعاد

---

١ - المستشرقون : نجيب عفيفي ج ٢ ص ٤٧١ .

النظر فيها وترجمها الى الألمانية ونشرها بعنوان : تاريخ النص القرآني سنة ١٨٦٠ م .

اللغة الدانماركية :

يدرسين : ندب في عام ١٩١٦ الى جامعة كوبنهاجن محاضرا ، فترجم القرآن الكريم الى الدانمركية طبع استوكهولم ١٩١٧ م .

ثانيا : الدراسات التي دارت حول القرآن الكريم .

باللغة الفرنسية :

(توافق القرآن والانجيل) بحث نشره المستشرق يوستل الذي ولد في مدينة بارنتون من أعمال نورمندي ونشر سنة ١٥٤٣ م .

(السامريون في القرآن) بحث للمستشرق جوزيف هاليفي من أساتذة مدرسة الدراسات العليا بالسوربون ونشر بحثه في المجلة الآسيوية ١٩٠٨ م .

(وجه الشبه بين القرآن وشعر أمية بن أبي الصلت) بحث للمستشرق الفرنسي هيارنافه ، وقد نشر بحثه سنة ١٩٠٤ م .

(بحث عن القرآن الكريم) للمستشرق البارون كارادي فو وقد نشر بحثه ١٨٩٨ م .

(دراسة آية من القرآن الكريم) للمستشرق جيم جريفو وقد نشر بحثه ١٩١٤ م في مجلة الشرق المسيحي .

(القنديل والزيت في القرآن) للمستشرق الفرنسي كلرمون – جانو وقد نشر بحثه في مجلة تاريخ الأديان ١٩٢٠ م .

(النفس في القرآن) للمستشرق بلاشر وقد نشر بحثه في مجلة الساميات ١٩٤٨ م

باللغة الانجليزية :

(سلك البيان في مناقب القرآن) للمستشرق الانجليزي بنريس وقد طبع في لندن ١٨٧٣ م .

(التطور التاريخي للقرآن) للمستشرق الانجليزي كانون ادوارد سل وقد طبع في مدراس ١٨٩٨ م .

(الاعجاز في القرآن الكريـم) للمستشرق الانجليزي روبسون وقد نشر ١٩٣٣ م .

وقد نشر كارل فولليرس النمساوي أستاذ اللغات الشرقية بجامعة ڤينا بحثا بعنوان (القرآن بلهجة مكة الشعبية) .

باللغة الألمانية :

(نجوم الفرقان في أطراف القرآن) بحث للمستشرق الألماني فلوجيل المولود في ١٨٠٢ م والمتوفى ١٨٧٠ م .

(الكلمات الأجنبية في القرآن) للمستشرق الألماني فرانكيل وهي رسالته في الدكتوراة . وقد ولد في ١٨٥٥–١٩٠٩ م .

(تفسير القرآن وترتيبه) للمستشرق هيرتوريج هير طبع ١٩٠٢ م.

(حروف النفي في القرآن الكريم) طبعت ١٩١١ م ، والطبعة الثانية بتوسع ١٩١٤ م .

(معجم قراء القرآن وتراجمهم) طبع ١٩١٢ م .

(تحقيق القراءات الشاذة في كتاب المحتسب لابن جنى طبع ١٩٣٣ م .

(كتاب مختصر القراءات) لابن خالويه طبع ١٩٣٣ م .

وهذا الانتاج للمستشرق الألماني برجستر اسر وبعض الكتب المحققة من التراث ، فقد طبعت باللغة العربية .

(كتب تفاسير القرآن) للمستشرق الألماني زايبولد المولود ١٨٥٩ م والمتوفى ١٩٢١ م .

(التوراة في القرآن) للمستشرق الألماني فايل طبع ١٨٣٥ م .

(مذهب الطبيعة الواحدة النصراني في القرآن) للمستشرق بومشتارك وله كتاب (النصرانية واليهودية في القرآن) طبع ١٩٢٧ م .

(مراجع القرآن وعلومه) .

(رسالة في تاريخ علم قراءة القرآن) .

وهذان البحثان للمستشرق الألماني بريتسل المولود عام ١٨٩٣ – المتوفى ١٩٤١ م .

(الشرع في القرآن) للمستشرق الألماني ريجلين .
(دليل القرآن) للمستشرق الألماني مالير .
(تفسير القرآن) للمستشرق الألماني كومبرت وقد نشر ١٩٤٨ م .
(الصلاة في القرآن) للمستشرق الألماني جوتيه .
(القرآن) بحث القى في مؤتمر المستشرقين للمستشرق الألماني أنطون شبيالير وقد ولد سنة ١٩١٠ م .[1] .

وبعد ، فان الناظر الى هذه الدراسات القرآنية يرى أن وراءها سموما دفينة ، تقدم سهلة التناول باسم المناهج الحديثة في الدراسات الاسلامية من ناحية ، وباسم حرية الفكر من ناحية أخرى .

لهذا ، فان الواجب يقضي أن ينظر الى تراثنا الذي مسته يد المستشرقين نظرة واعية فيها الكثير من اليقظة ، وفيها التعمق الذي يكشف ما وراء السطور ، فما وافق قيمنا ، وسار في درب ثقافتنا الاسلامية قبلناه ، وما حاد عن السنن وركب الشطط . ولاذ بالانحراف رفضناه ، وفضحناه ، وهناك جوانب فكرية أثارها المستشرقون في مجال الدراسات القرآنية استطعت أن أبين زيفها ، وألمس عوارها ، فالى بحث قادم لعرض هذه الجوانب ، والرد عليها ان شاء الله ، تلبية لقول الله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

---

١ – الذى أعانني في جمع هذه الدراسات من بين السطور الكتب الآتية :
أ – المستشرقون : نجيب عفيفي ط ثالثة – دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م .
ب – المنتقى من دراسات المستشرقين : الدكتور صلاح الدين المنجد – طبع القاهرة ١٩٥٥ م .
جـ – المستشرقون والاسلام : زكريا هاشم طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

جوانب من أخطاء المستشرقين في الدراسات القرآنية



جوانب من أخطاء المستشرقين في الدراسات القرآنية

بينت في مقال سابق بعضا من الدراسات القرآنية التي قام بها بعض المستشرقين ، وكان هدفي من هذا البيان هو اتاحة الفرصة لشبابنا المثقف ليقف على هذه البحوث ، ويدرك ما فيها من صواب أو خطأ ليكون على بينة من أمر هذه الدراسة القرآنية التي كتبت بأقلام قوم عاشوا في هذة الدراسات وأفنوا أعمارهم فيها من أجل المعرفة والعلم أحيانا ومن أجل الأغراض الخفية ، وتشويه الحقيقة أحيانا وفي هذا المقال سأحاول عرض جوانب من أخطاء المستشرقين في الدراسات القرآنية .

أولا : في النص القرآني وتوثيقه :

نحن نعلم أن القرآن الكريم وصل الى الذروة العليا في التوثيق ، وهذا سر عظمته ، ومفتاح خلوده ، أتفق أهل العلم والمعرفة على هذه الحقيقة وحينما أقول : أهل العلم والمعرفة فانما أعني هؤلاء الذين سمت عقولهم وأشرقت بصائرهم ، وكان الحق رائدهم .

وقد سجل هذا القرآن الكريم تسجيلا رائعا في مصحف لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، يقول ابن حزم في مجال هذا التوثيق (إن هذا القرآن ظل ينقله أهل المشرق والمغرب عن أمثالهم جيلا جيلا لا يختلف فيه مؤمن ، ولا كافر منصف غير معاند للمشاهدة . . لا يشكّون ولا يختلفون في أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أتى به ، وأخبر أن الله عز وجل أوحى به اليه ، وأن من اتبعه أخذه عنه كذلك ، ثم أخذ عن أولئك حتى بلغ الينا)[1] ، وكانت الخطوة الأولى في توثيق النص القرآني على عهد رسول اللهخ صلى الله عليه وسلم كتابته حين النزول ، ومنع كتابة شيءٌ سواه ، والسبب في ذلك يرجع الى صيانة القرآن الكريم من الاختلاط بغيره ، بدل على ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا تكتبوا عنى شيئا سوى القرآن فمن كتب كتب عني شيئا سوى القرآن فليمحه)[2] .

---

* نشر في مجلة الوعي الاسلامي – اكتوبر سنة ١٩٧٠ .

وقد حدثنا أبو سعيد الخدري أنه قال : استأذنت النبي عليه السلام أن أكتب الحديث فأبى أن يأذن لى) [٣] .

ولم يكن أبو سعيد الخدري في هذا المجال وحده ، فقد شاركه في الرواية أيضا أبو هريرة الذي يقول : (خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نكتب الأحاديث ، فقال : ما هذا الذى تكتبون ؟ قلنا أحاديث سمعناها منـــك ! .

قال : أكتابا غـير كتاب الله تريدون ؟ مـا أضـل الأمم من قبلكم الا ما اكتتبوا مـن الكتب مع كتاب الله تعالى) [٤] .

من هذه الأحاديث الشريفة يتضح لنا في جلاء أن القرآن الكريم وثق توثيقا مكينا في عهده صلى الله عليه وسلم ، لأنه كتب كله بأقلام كتاب الوحي بيد أنه لم يجمع في مصحف ، لأن الحاجة لم تكن ماسة اليه ، ولأن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتسابقون في حفظه ، ويتبارون في كتابه نصه والرسول عليه السلام معهم يتلو عليهم من آياته ما تلين به القلوب .

وقد أدرك الامام السيوطي هذا السر فقال في كتابه : (الإتقان) ما نصه (قال الخطابي : إنما لم يجمع صلى الله عليه وسلم القرآن في المصحف لما كان يترقبـه مـن ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله ، ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك ، وفـاء بوعـده الصادق بضمان حفظـه عـلى هذه الأمـة) [٥] .

رأي المستشرقين في هذا التوثيق :

يقول (آرثر جفري) في مقدمته لكتاب (المصاحف) لابن أبي داود ما نصه : (الرأي الشائع في أن القرآن الكريم كتب في عهد النبي عليه السلام لا يقبله المستشرقون ، لأنه يخالف ما جاء في أحاديث أخرى أنه قبض صلى الله عليه وسلم ولم يجمع في القرآن شئ) .

ويؤمن (آرثر جفري) بهذه القضية ، ويؤكد إيمانه بها بقوله : (وهذا يطابق ما روى من خوف عمر بن الخطاب ، وأبي بكر الصديق لما استحر القتل

بالقراء يوم اليمامة . . وسبب الخوف هو قتل القراء الذين كانوا قد حفظوا القرآن ولو كان القرآن قد جمع ، وكتب لما كانت هناك علة لخوفهما) [٦] .

راعني هذا القول ، وأطلت التفكير فيه ، ولم أجد سببا قويا يحمل هؤلاء المستشرقين الى هذا القول الباطل غير التشكيك في النص القرآني ، لأن الذاكرة مهما كانت قوية ، فانها لا تستطيع أن تحتفظ بما لديها فترة طويلة ، ومعنى ذلك أن القرآن الكريم يكون شأنه في مجال الذاكرة والحفظ شأن الشعر المروي عرضه للزيادة والنقص بل عرضه للتغيير والتبديل .

وفي رأيي إن الدليل مفقود في هذه القضية ، فليس المراد من الأحاديث التي تقول : إن النبي عليه السلام قبض ، ولم يجمع في القرآن شئ ، أن القرآن لم يكن مكتوبا حين ذاك ، بل المراد أن القرآن الكريم لم يجمع في مصحف ، وقد قدمت السبب في ذلك ، فتفسير المستشرقين لهذه الأحاديث أو الأخبار بهذا المعنى الذي يخالوه تفسير خاطئ وراءه الغرض الخفى ، وهو اهتزاز الثقة بالنص القرآني على أنه ليس هناك أصرح من الروايات التي تؤيد كتابة القرآن في عهد الرسول عليه السلام ، والتي تؤكد : (أن القرآن كان مجموعا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه ما نزلت آية الا وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يكتب له أن يضعها في موضع كذا من سورة كذا) [٧] .

وأما خوف عمر بن الخطاب ، وأبي بكر الصديق حين استحر القتل بالقراء يوم اليمامة فالاستدلال به في غير موضعه ، لأن خوفهما زيادة تحر في صيانة القرآن الكريم وحفظه ليلتقي المحفوظ بالمكتوب وذلك لأن طريقة أداء هذا المكتوب لا يتأتى الا عن طريق التلقين والرواية ، ومن ثم نشأ خوف الخليفتين الجليلين من أن يموت القراء ، فتتعثر طريقة الأداء .[٨] .

ثانيا : في رسم المصحف العثماني والقراءات :

يقصد بالرسم رسم الحروف الهجائية التي تدل على الكلام ، ورسم الكلمات في القرآن كان غاية ما وصل اليه فن الرسم الاملائي في هذا العهد ، وكتب القرآن الكريم بهذا الرسم ، وأطلق عليه الرسم العثماني ، لأن عثمان رضي الله عنه حينما كتب المصحف وضع للثلاثة القرشيين الطريقة التي على أساسها

يكتبون فقال : (إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شئ ، فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم) [٩]

فهذا الرسم الذي سار عليه كتبة المصحف العثماني اصطلاحي يسير على على قواعد الكتابة التي كانوا بها يكتبون .

ولما اتخذ المصحف هذا الرسم شعارا له أصبح سنة متبعة لا تخالف ، ذلك لأن رسوم الهجاء تتغير من زمن الى زمن ، بل من شعب الى شعب ، فصيانة لكتاب الله من عبث العابثين ، واغلاقا لباب التغيير فيه ، واحداث ما ليس منه أصبح هذا الرسم مقدسا لا يمس .

ومن هنا (قال أشهب : سئل (مالك) هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : لا : ألا على الكتبة الأولى) [١٠]، وقال الامام أحمد : تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك) [١١].

وقال البيهقي في شعب الايمان : (من كتب مصحفا فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به المصاحف ، ولا يخالفهم فيه ، ولا يغير مما كتبوا شيئا ، فانهم كانوا أكثر علما ، وأصدق قلبا ولسانا ، وأعظم أمانة منا فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكا عليهم) [١٢].

واذا كان رسم المصحف العثماني لا يخالف ، ولا يصح الخروج عن رسمه فهل هذا يعني أن هذا الرسم تلزمنا القراءة به ، وأنه صورة للكلمات القرآنية المنطوقة ، وأنه بهذا الاعتبار يحدد طريقة القراءة أو الاداء كما يحدد طريقة الرسم أو الكتابة ؟ .

الحق الذي لا مرية فيه أن الرسم غير القراءة ، لأن القراءة مصدرها الرواية ، والرسم مصدره طريقة الكتابة المعروفة اذ ذاك ، وبناء على هذا اننا نقرأ الآية ، وننطق بكلماتها كما رويت لا كما رسمت ، ولو سرنا في طريق الرسم وحده لخرجنا بالقرآن عن حقيقته التي نزل بها ، وترتب على ذلك أننا نقرأ كلمات من القرآن بطريقة لم ترو عن النبي عليه السلام .

رأى المستشرق (جول تسيهر) في رسم المصحف والقراءات :

يقرر ذلك المستشرق أن نشأة الكثرة من القراءات المختلفة ترجع الى رسم المصحف ، يقول : (وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات – يقصد الاختلاف في القراءات – الى خصوصية الخط العربي . . الى أن يقول : وأذن فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط ، واختلاف الحركات . . كانا هما السبب الأول في نشأة حركة اختلاف القراءات في نص لم يكن منقوطا أصلا ، ولم تتحر الدقة في نقطه أو تحريكه)[١٣].

وعجبت كيف يتورط ذلك المستشرق في هذا الخطأ الفادح ؟ ومن أين تسرب الى فكره هذا الرأي الخطير الذي يرجع الكثرة من القراءات الى الخط أو الى رسم المصحف ، أنه بهذا الرأى يهدم الحقيقة التي استقرت في نفوس المسلمينأن القراءات مصدرها الرواية والسماع لا الخط والرسم .

قلت في نفسي : لعل هذا المستشرق استقى هذا الرأي من الزمخشرى حينما وقف من قراءة ابن عامر للآية المشهورة في سورة (الأنعام) : (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم)[١٤] برفع القتل ونصب الأولاد ، وجر الشركاء على اضافة القتل الى الشركاء ، والفصل بينهما في غير ظرف .

وكان من رأي الزمخشري أن هذه القراءة مردودة ، وأرجع الزمخشري خطأ ابن عامر في هذه القراءة الى رسم المصحف حيث قال : (والذى حمله على ذلك أنه رأى في بعض المصاحف (شركائهم) مكتوبا بالياء)[١٥] ومعنى ذلك أن ابن عامر اعتمد على المصحف ، ولم يعتمد على الرواية .

ومن هنا فتح الباب أمام المستشرق فقال ما قال :

يقول أبو حيان الأندلسي صاحب البحر المحيط « وأعجب لعجمي ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت ، وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقا وغربا ، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم ، وفهمهم ، وديانتهم)[١٦].

وقد جانب الصواب هذا المستشرق حينما عرض هذه المغالطة التي تتجافى عن الواقع والتاريخ .

أما مجافاتها للواقع ، فانه لو كانت القراءات ترجع الى رسم المصحف لراعتنا هذه الكثرة الهائلة من القراءات التي يحتملها الرسم ، والتي لم يثبت أو لم ترو عن النبي عليه السلام .

ذلك لأن الرسم تحتمل الكلمة فيه ، وبخاصة اذا لم تكن منقوطة أو مجردة من الحركات وجوها عدة من القراءات .

والقراءات التي بين أيدينا والتي صنفها العلماء والتي دققوا في عرضها ، وتثبتوا من سندها قراءات معروفة محدودة ، وكلها ترجع الى الرواية والنقل لا إلى الكتابة والرسم .

وربما كان من أكبر الأدلة على بطلان رأى جولد تسيهر « أن هذه القراءات رويت وشاعت القراءة بها قبل تدوين المصاحف ، كما كان القرآن محفوظا في الصدور قبل تدوين المصاحف ، ثم حين دونت المصاحف لم يكن النقط عرف ، ولا الشكل اختراع فظهرت حركة القراءات قبل النقل والضبط . فكانت قراءاتهم للكلمة على حسب ما يروون وينقلون لا على حسب ما يقرءون في المصاحف » [١٧]

واذا كان نقل اللغة عن الصحف أمر معيب بعد تصحيفا ، فالأمر كذلك بالنسبة للمصحف فمن نقل القرآن عنه ، وأغلق أذنه دون الرواية ، وقع في التصحيف فحمّاد الرواية مثلا حفظ القرآن من المصحف ، وقد أخذ عليه أنه كان يقرأ : (وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها أباه) [١٨] بالباء الموحدة . وحمزة الزيات ، كان يتعلم القرآن من المصحف فقرأ يوما ، وأبوه يسمع (الم ، ذلك الكتاب لا زيت فيه) [١٩] فقال أبوه : دع المصحف ، وتلقن من أفواه الرجال) .

ومن أجل هذه التصحيفات التي تخل بمنطق الآيات قالوا : (لا تأخذوا القرآن من مصحفي ، ولا العلم من صحفي) [٢٠].

والى هذا الوقت نجد معالم (الكتاب) يبتدئ مع التلميذ الصغير أول

ما يبتدئ بتحفيظ القرآن الكريم قبل أن يجيد القراءة والكتابة ، لإيمانه أن قراءة القرآن أمر لا يؤخذ من الخط والرسم .

وأما مجافاتها للتاريخ ، فان عثمان رضي الله عنه جرد المصحف من النقط ليحتمل رسمه القراءات المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لا يحدده في قراءة بعينها أو حرف بعينه ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه سلم اتفقوا على صنيع عثمان في المصحف ، وعلى رسمه ، وبذلك كانت هذه القراءات العديدة لا ترجع الى الرسم ، وانما مرجعها الأول والأخير الى السند والرواية .

والدليل الأوضح الذى يهدم رأى المستشرق هو محاكمة ابن شنبوذ الذي ثار عليه العلماء من أجل رأيه الذي يقول فيه : ما وافق خط المصحف العثماني صحت القراءة به متى صح وجهه في العربية بقطع النظر عن الرواية(٢١)

هذا وقد رجع ابن شنبوذ عن رأيه لما أدب وعذب واستتيب(٢٢) .

ثالثا : الإعراب والقرآن الكريم :

بدأت حركة الأعراب في القرآن الكريم بتنقيط المصحف على يد أبي الأسود ورووا أنه أحضر له زياد بن أبيه ثلاثين رجلا لهذا العمل العظيم ، فاختار منهم أبو الأسود عشرة ، ثم لم يزل يختارهم حتى اختار منهم رجلا من عبد القيس فقال له : خذ المصحف ، وصبغا يخالف المداد ، فاذا فتحت شفتى فانقط واحدة فوق الحرف ، واذا ضممتهما فاجعل النقطة الى جانب الحرف ، واذا كسرتهما فاجعل النفطة في أسفله ، فإذا اتبعت شيئا من هذه الحركات عنه ، فانقط نقطتين ، فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره ، ثم وضع المختصر المنسوب اليه بعد ذيلك) (٢٣).

رأي كارل فولرس في إعراب القرآن الكريم :

هذا الرأي أحدث ضجة بين العلماء في الغرب والشرق ذلك لأن صاحب هذا الرأي قال : (إن القرآن الكريم قد نزل في الأصل بلهجة محلية من اللهجات العربية ، وأنه لم يكن معربا ، ثم أدخل الإعراب عليه على وفق قواعد لغـة الشعر) (٢٤).

وقد ردد هذا الرأى من المستشرقين ، كاله ، وحايم دين ، وشبهة هؤلاء أن كاله وجـد في مخطوطين عثر عليهما في لندن أحاديث في الحث على التزام قواعد الاعراب في قراءة الكتاب العزيز ، فاستدل بها على أن الناس لم يكونوا يراعون الإعراب في قراءة كتاب الله ، في بادئ الأمر ، ثم روعي الاعراب فيها على وفق قواعد المنطق المضبوطة في الشعر العربي والتي دونها علماء النحو فيما بعد)[٢٥].

مناقشة هذا الراءى :

إن العلة الأولى لهذا الرأى الخطير ترجع إلى وجود بعض أحاديث تنص على التزام الإعراب في قراءة القرآن كالحديث الذي رواه أبو عبيدة باسناد له عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعربوا القرآن وكحديث ابن مسعود قال : أعربوا القرآن فانه عربي .

وكحديث عمـر بـن الخطاب : تعلموا إعـراب القرآن كما تتعلمـون حفظه [٢٦].

والواقع أن هذه الأحاديث والاخبار فيها نظر ، لأن الاعراب لم يظهر بمعناه الاصطلاحي إلا في عصر متأخر .

وفي نظري أن المراد بالأعراب هنا الإبانة والتوضيح ، وفهم الغريب : (وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يسمون هذا الغريب (إعراب القرآن) لأنهم يستبينون معانيه ، ويخلصونها)[٢٧].

على أية حال أستطيع أن أؤكد في هذا المقال أن هذا الفهم الذي فهمه بعض المستشرقين يدل على جهل باللغة ، بل على جهل بالتاريخ .

أما الجهل باللغة ، فان الأعراب هنا كما قلت : معناه ، الابانة والوضوح ، يقول الفيروزابادي : الإعراب : الابانة والإفصاح عن الشئ)[٢٨].

وإما أن يرجع الأعراب إلى بيان حلاله وحرامه ، أى تعرفوا على ما فيه من حلال فاعملوا به ، وعلى ما فيه من حرام – فتجنبوه يدل على ذلك أن الصحابة كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا

ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا) [٢٩].

وأما الجهل بالتاريخ ، فإن القرآن الكريم نزل على قوم تمكنت من ألسنتهم الفصاحة وغذوا بلبان البلاغة ، وتدربوا على ميادين القول ، ولن يكون ذلك الا بإعراب ، ولو كان بلهجة محلية كما يقول بعض المستشرقين لسهل الأمر وأصبح القرآن غير معجز ، لأنه من السهل الإتيان بمثله ، ومن السهل أن يندثر القرآن الكريم كما اندثرت بعض هذه اللهجات ، وأصبحت ، أثرا بعد عين أما والقرآن الكريم قائم بيننا بصولته البلاغية ، يتحدى أرباب القول ويعجز أساطين البلاغة ، وهو الذي خلد هذه اللغة ، وخلد إعرابها ، وجعلها حية بعد هذه السنين الطويلة التي طوت فيما طوت كثيرا من اللغات ، فإنه لا سبيل إلى انكار أنه نزل معربا ، وأن القول في ذلك قول مغرض

أكبر الظن أن فتح الثغرات في جبهة القرآن لينال منه من ينال كان من دأب هؤلاء المستشرقين ، ولكن القرآن الكريم أكبر من هذه السخافة ، وأقوى من هذه الفتنة ، وصدق الله العظيم . . إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون .

مراجع البحث

١ - الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم جـ ٢ ص ٧١ .
٢ - تقييد العلم للخطيب البغدادي ص ٢٩ .
٣ - تقييد العلم للخطيب البغدادي ص ٣٢ .
٤ - تقييد العلم للخطيب البغدادي ص ٣٣ .
٥ - الاتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ ١ ص ٥٧ .
٦ - المصاحف لابن أبي داود ص ٥ .
٧ - المرجع السابق والصفحة .
٨ - مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٧ .
٩ - انظر : كتاب القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية طبع دار المعارف لصاحب البحث ص ٥ .
١٠- الاتقان جـ ١ ص ٥٩ .
١١- الاتقان جـ ٢ ص ١٦٧ .
١٢- مفتاح السعادة جـ ٢ ص ٢٢٥ .
١٣- مفتاح السعادة جـ ٢ ص ٢٢٤ .
١٤- تفسير المذاهب الاسلامية : ص ٨ ، ص ٩ .
١٥- الأنعام : (١٣٨) .
١٦- البحر المحيط (جـ ٤ ص ٢٢٩) .
١٧- القراءات واللهجات : عبد الوهاب حمودة ص ٧..
١٨- مذاهب التفسير الاسلامي .
١٩- البقرة : ٢ .
٢٠- التصحيف والتحريف للعسكري ص ٩ .
٢١- التصحيف والتحريف ص ٩ .
٢٢- هامش مذاهب التفسير الاسلامي ص ٨ .
٢٣- نزهة الألباب لأبن الأنباري ص ١٢ .
٢٤- الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة ص ٣٢٨ .
٢٥- المرجع نفسه والصفحة .
٢٦- الزينة للرازي ص ١١٧ .
٢٧- اعجاز القرآن للرافعي ص ٧٥ .
٢٨- القاموس المحيط في المادة نفسها .
٢٩- مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٥ .

الشَواهِد الشعريَّة وغريب القرآن

الشواهد الشعرية وغريب القرآن

تمهيد :

يقسم نقاد الشعر العربي الشعراء الى طبقات . ومنزلة الشعر العربي القديم كانت سببا قويا لهذا التفسيم .

والحقيقة أن الخط الفاصل بين القديم والحديث خط دقيق جدا ، فكل شاعر يعيش في زمنه هو حديث بالنسبة له ، ولكنه قديم بالنسبة لمن جاء بعده . يقول ابن رشيق : «كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالإضافة الى من كان قبله » .

ولمنزلة الشعر القديم يروي الأصمعي أنه جلس الى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج فما سمعه يحتج ببيت إسلامي ويفسر ابن رشيق هذه المنزلة فيقول : « وليس ذلك لشيئ إلا لحاجتهم في الشعر إلى الشاهد ، وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون » .

على أن نظرة ابن قتيبة بالنسبة لمنزلة الشعر القديم تختلف كل الاختلاف عن نظرة أبي عمرو وأصحابه ، ذلك لأن ابن قتيبة يرى أن الشعر هبة سماوية لا ينفرد بها جيل ، أو يستأثر بها عصر ، أو يسيطر عليها زمن فيقول : « لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص بها قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا في عصره » .

على أية حال فالذي أود أن أذكره هنا أن النقاد قسموا الشعراء بالنسبة الى الزمن الى أربع طبقات :

« جاهلى قديم ، ومخضرم : وهو الذي أدرك الجاهلية والإسلام ، وإسلامي ، ومحدث . ثم صار المحدثون طبقات : أولى ، وثانية على التدريج هكذا في الهبوط إلى وقتنا هذا » . ويعقد البغدادي في خزانة الأدب فصلا عن الكلام الذي يستشهد به في اللغة والنحو والصرف . وبعد أن وافق النقاد في

* نشر في مجلة الوعي الاسلامي – فبراير ١٩٧٧ .

تقسيم الشعراء الى الطبقات الأربع السابقة ذكر أن الطبقتين الأوليين يستشهد بشعرهما اجماعا ، وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها . . . . وأما الرابعة فالصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقا .

وهناك وجهة نظر أخرى حول الاستشهاد بشعر الطبقة الرابعة فقد رأى بعض العلماء أن توافر الثقة بالشاعر يطمئن النفس بالاحتجاج بشعره حتى ولو تأخر زمنه ، وعلى رأس هؤلاء القائلين بهذا الرأى الإمام الزمخشري والإمام الرضي حيث استشهدا بشعر أبي تمام في عدة مواضع من شرح الرضي على الكافة واستشهد الزمخشري أيضا في تفسير أوائل البقرة من (الكشاف) ببيت من شعره وقال : « وهو وان كان محدثا لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربيــة » .

معنى غريب القرآن :

القرآن الكريم – وان نزل بلغة العرب – يحتوي على كلمات تحتاج الى بيان وايضاح ، لأنها قد تكون لغة لقبيلة « أو تكون مستعملة على وجه من وجوه الوضع يخرجها مخرج الغريب كالظلم ، والكفر ، والايمان ونحوها مما نقل عن مدلوله في لغة العرب الى المعاني الاسلامية المحدثة » .

وقد بدأت حركة الكشف عن هذه الكلمات الغامضة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد سأله اعرابي عن قوله تعالى : (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) الأنعام /٨٢ . قائلا : وأينا لم يظلم نفسه ؟ ففسر له النبي عليه الصلاة والسلام الظلم بالشرك واستشهد عليه بقوله تعالى : (إن الشرك لظلم عظيم) لقمان /١٣.

ويوضح ابن قتيبة في كتابه « المسائل » أن « العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه بل لبعضها الفضل في ذلك على بعض ، والدليل عليه قول الله عز وجل : (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) آل عمرآن /٧ ثم قال : « ويدل عليه قول بعضهم : يا رسول الله انك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه ، ونحن العرب حقا ، فقال : ان ربي علمني فتعلمت » . وكان الصحابة رضي الله عنهم يسمون هذا الغريب : « إعراب القرآن »

ولا يقصدون به معنى : الاعراب النحوي ، لأنهم كما يقول الرافعي كانوا : « يستبينون معانيه ، ويخلصونها » وقد روى أبو هريرة في ذلك : « أعربوا القرآن ، والتمسوا غرائبـــه » .

وقد لمس هذا المعنى الزمخشرى في كتابه : « أساس البلاغة » فقال : « وتكلم فأغرب اذا جاء بغرائب الكلام ونوادره ، وتقول : فلان مغرب كلامه ومغرب فيه ، وفي كلامه غرابة ، وغرب كلامه ، وقد غربت هذه الكلمة أي غمضت فهي غريبة ، ومنه قول الاعرابي : ليس هذا بغريب ، ولكنكم في الأدب غربـــاء » .

الشواهد الشعرية والغريب :

مما لا شك فيه أن اهتمام الرواة بالشعر العربي ، وجمعه وروايته ، واقامة الدراسات حوله لنقده كان من أجل القرآن الكريم لتفسير غريبه ، وتوضيح معانيه ، والدليل على هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما : « اذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب ، فان الشعر ديوان العرب » ولاهتمام العلماء بالقرآن الكريم كان الشافعي الفقيه الكبير يحفظ عشرة آلاف بيت من شعر هذيل بإعرابها ، وغريبها ومعانيها .

وحدثوا عن ابن الأنباري أنه كان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت من الشعر من أجل القرآن الكريم . وقد أشاد الرافعي بهذه العناية الفائقة التي وجهها العلماء الى الشعر العربي من أجل القرآن الكريم فقال : « توسع أهل اللغة في شواهد القرآن ، ونقبوا عنها . . . الى أن يقول : فلا يعرف في تاريخ العلوم اللسانية قاطبة شواهد تبلغ عدتها أو تقاربها أو تكون منها على نسبة متكافئة ، فان مبلغ ما أحصوه من شواهد القرآن فيما ذكروا ثلاثمائة ألف بيت من الشعر ولعمر أبيك إنها لمعجزة في فنها ، ولو بلغت الشواهد نصف هذا القدر لكانت المعجزة كاملـــة » .

ويسوق لنا الإمام البيضاوي في تفسيره قصة تبين لنا في وضوح كيف كان يعجز بعض الصحابة عن فهم معاني بعض هذا الغريب ، فاذا ما فسر هـــذا الغريب بشعر قالته العرب استراحت النفس الى هذا التفسير ، واطمأن القلب

الى هذا البيان . ففي قوله تعالى : (أو يأخذهم على تخوف) النحل /٤٧ . يقول البيضاوي : أى على مخافة بأن يهلك الله قوما قبلهم فيتخوفوا فيأتيهم العذاب وهم متخوفون أو على أن ينقص شيئا بعد شئ في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا ، مِنْ تخوفته إذا تنقصته » .

وهذا التفسير لمعنى التخوف ما كان معروفا لولا هذه الحادثة التي ساقها البيضاوي عقب تفسيره لهذه الكلمة فقد قال : روى أن عمر رضي الله تعالى عنه قال على المنبر : ما تقولون فيها ؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل ، فقال : هذه لغتنا . التخوف : التنقص ، فقال : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال نعم . قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته :

تخوف الرحل منهاتامكاً قرداً ... كما تخوّف عود النبعة السفن

فقال عمر : عليكم بديوانكم لا تضلوا . قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية فان فيه تفسير كتابكم ، ومعاني كلامكم .

ويعرض لهذه الكلمة الغريبة القالى في كتابه الأمالى مفسرا بعض الكلمات الغامضة في بيت الاستشهاد فيقول : التامك : المرتفع من السنام . والقرد : المتلبد بعضه على بعض . والسفن : المبرد . ولم يكتف أبو علي القالى بهذا البيت المستشهد به لتوضيح كلمة : « تخوف » بل يشفع ذلك البيت ببيت آخر فيقول « وأخبرني أبو بكر بن الأنباري عن أبيه قال : أتى أعرابي الى ابن عباس فقال :

تخوفني مالي أخ لي ظالـم ... فلا تخذلني اليوم يا خير من بقى

فقال : تخوفك : أي تنقصك ؟ قال : نعم ، قال الله أكبر : (أو يأخذهم على تخـوف) .

وتواجهنا في آمالى القالى كلمة أخرى غريبة وهي كلمة : « يمحص » من قوله تعالى : (وليمحص الله الذين آمنوا) آل عمران /١٤١ .

قال أبو على : قرأت على أبي بكر الأنباري في قوله عز وجل : (وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) أقوالا . قال قوم : يمحصهم : يجردهم من ذنوبهم ، واحتجوا بقول أبي داود الأيادى يصف قوائم الفرس :

صم النسور صحاح غير عاثرة ركبن في محصات ملتقى العصب

النسور : شبه النوى التي تكون في باطن الحافر . ومحصات : أراد قوائم منجردات ليس فيها الا العصب والجلد والعظم . ومنه قولهم : اللهم محص عنا ذنوبنا . قال : وقال الخليل : معنى قوله جل وعز : وليمحص : وليخلص . وقال أبو عمرو واسحاق بن نزار الشيباني : وليمحص : وليكشف واحتج بقول الشاعر :

حتى بدت قمراؤه وتمحصت ظلماؤه ورأى الطريق المبصر

قال : ومعنى قولهم : اللهم محص عنا ذنوبنا أى اكشفها ، وقال آخرون : اطرحها عنا . وقال أبو علي : هذه الأقوال كلها في المعنى واحد ألا ترى أن التخليص تجريد ، والتجريد كشف ، والكشف طرح لما عليه » .

وقد فاضت كتب التراث الإسلامي بهذه الشواهد الشعرية التي خدمت القرآن الكريم في توضيح غريبه ، وكشف معانيه .

وإلى القارئ نماذج من هذه الشواهد ليدرك مدى ما بذل هؤلاء العلماء من جهد صادق في مجال القرآن الكريم .

من هذه النماذج :

كلمة (زنيم) من قوله تعالى : (عتل بعد ذلك زنيم) القلم / ١٣ فقد سئل ابن عباس عنها فاستشهد فيها بقوله :

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد في عرض الأديم الأكارع

وعن ابن ملكية قال : سئل ابن عباس عن « الليل وما وسق » فقال : وما جمع ، ألم تسمع قول الشاعر :

ان لنا قلائصا حقائقا مستوسقات لو يجدن سائقا

وأسئلة نافع بن الأزرق لابن عباس حول كلمات من غريب القرآن الكريم مشهورة سجلتها معظم الكتب التي ألفت في الدراسات القرآنية . وكانت إجابة ابن عباس عن هذه الأسئلة بالشعر العربي ليؤكد أن هذه الكلمات ليست غريبة

عن اللغة ، وان كان لا يدركها الكثير من العرب . ومن أسئلة نافع سؤاله عن قول الله تعالى : (عن اليمين وعن الشمال عزين) المعارج /٣٧ . قال ابن عباس : حلق الرفاق . قال نافع : وهل تعرف العرب ذلك قال نعم ، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يهرعون إليه حتى   يكونوا حول منبره عزينا

وسأله عن قوله تعالى : (**إذا أثمر وينعه**) الأنعام /٩٩ : نضجه أما سمعت قول القائل :

اذا ما مشت وسط النساء تأودت   كما اقتر غصن ناعم النبت يانع

وسأله عن قوله تعالى : (**وابتغوا اليه الوسيلة**) المائدة /٣٥ قال : الوسيلة . الحاجة . أما سمعت قول عنترة :

ان الرجال لهم إليك وسيلة   إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

وسأله عن قوله تعالى : (**أفلم ييأس الذين آمنوا**) الرعد /٣١ قال : أفلم يعلم . أما سمعت قول مالك بن عوف :

لقد يئس الأقوام أني أنا ابنه   وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

وسأله عن قوله تعالى : (**ولا تضحي**) طه /١١٩ قال : لا تعرق من شدة حر الشمس ، أما سمعت قول القائل :

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت   فيضحى وأما بالعشى فيخصر

الغريب والمجاز :

واذا تجاوزنا هذا الغريب الى المعاني والمجاز فاننا نرى كثيرا من الشواهد الشعرية جاءت لتوضح هذه المعاني ، وتكشف لنا أسرار هذا المجاز .

ويطالعنا أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي في كتابه : « جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والاسلام » بطائفة من الشعر الذي استشد به في مجالي المعاني والمجاز .

يقول أبو زيد : « وفي القرآن مثل ما في كلام العرب من اللفظ المختلف

ومجاز المعاني فمن ذلك قول امرئ القيس :

قفا فاسألا الأطلال عن أم مالك   وهل تخبر الأطلال غير التّهالُك

فقد علم أن الأطلال لا تجيب اذا سئلت ، وانما معناه : قفا فاسألا أهل الأطلال ، وقال الله تعالى : (**واسأل القرية التي كنا فيها**) يوسف /٨٢ .

وقال الشماخ بن ضرار التغلبي :

أعائش ما لقومك لا أراهم   يُضيعون الهجان مع المُضيع

(لا) هنا زائدة ، والمعنى : ما لقومك أراهم . وقال تعالى : (**غير المغضوب عليهم ولا الضالين**) الفاتحة / ٧ (لا) هنا زائدة . والمعنى : غير المغضوب عليها والضالين .

وقال عمرو بن معد يكرب الزبيدي :

وكل أخ مفارقه أخوه   لعمر أبيك إلا الفرقدان

فجعل (الا) بدلا من الواو ، والمعنى : والفرقدان كذلك . وقال الله تعالى : (**والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم**) النجم /٣٢ (إلا) ها هنا بدل من الواو . والمعنى : واللمم . وقال تعالى : (**فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها الا قوم يونس**) يونس /٩٨ .

وقال امرؤ القيس بن جحر :

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني   كبرت وألاّ يُحسن السر أمثالي

السر : النكاح ، قال تعالى : (**ولكن لا تواعدوهن سرا**) البقرة /٢٣٥

وقال زهير :

ويُنغِض لي يوم الفِجار وقد رأى   خيولا عليها كالأسود ضواري

ينغض : يرفع رأسه . قال تعالى : (**فسينغضون اليك رؤوسهم**) الإسراء /٥١ أي يرفعونها ويحركونها بالاستهزاء .

وقـال النابغـة :

تَلُوثُ بعد افتضال البُرد مئزَرَها لوثا مثل دِعْصٍ الرملة الهاري

الهاري : المتهدم من الرمل . قال الله تعالى : (**على شفا جرف هار**) التوبة / ١٠٩ أي متهدم .

وقال الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها مور السحابة لا ريث ولا عجل

وقال الله تعالى : (**يوم تمور السماء مورًا**) الطور /٩ والمور : الاستدارة والتحرك وقال الأعشى :

أم غاب ربك فاعترتك خصاصة فلعل ربك أن يؤوب مؤيـدا

الرب : السيد ، قال الله تعالى : (**ارجع الى ربك**) يوسف /٥٠ أي الى سيدك . وقال الأعشى :

تقول بنتي وقـد قرّبت مرتحلاً يا رب جنب أبي الأوصابَ والوجعا
عليكِ مثلُ الذي صليت فاغتمضي نوما فان لجنب الحـيّ مُضطَجَعا

الصلاة ها هنا : الدعاء . قال تعالى : (**وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم**) التوبـة /١٠٣ .

وقال الأعشى يذكر النعمان :

وخـرت تميـم لأذقانهـا سجودا لذي التاج في المعمعة

الأذقان : الوجوه كقوله تعالى : (**ويخرون للأذقان يبكون**) الاسراء /١٠٩ .

وقال لبيـد :

ومـا الناس الا عامـلان فعامل يتبر ما يبني وآخـر رافـع

يتبر : أي ينقص قال الله تعالى : (**متبرّ ما هم فيه**) الأعراف /١٣٩ .

وقال أمية بن أبي الصلت :

وفيها لحم ساهرة وبحـرٍ ومـا فاهوبـه أبـدا مقيـمُ

الساهرة : الفلاة . قال الله عز وجل : (**فإذا هم بالساهرة**) النازعات /١٤ .

وقال أمية بن أبي الصلت :

نفشت فيه عِشاءً غَنَمٌ   لرعاءٍ ثُمَّ بعد العتمةْ

النفش : الرعي بالليل . قال الله تعالى : (**إذ نفشت فيه غنم القوم**) الأنبياء ٧٨ .

وقال أمية بن أبي الصلت :

لقيت المهالك في حربنا   وبعد المهالك لاقيت غيّا

غي : واد في النار . قال الله تعالى : (**فسوف يلقون غيا**) مريم /٥٩ .

وقال أبو ذؤيب :

اذا لسعته النحل لم يرج لسعها   وخالفها في بيت نُوبٍ عواسلِ

لم يرج : لم يخف . وقال الله تعالى : (**ما لكم لا ترجون لله وقاداً**) نوح /١٣.
أي لا تخافون .

هذه أمثلة عديدة اقتبستها من كتاب الجمهرة تثبت أن الشواهد الشعرية ضرورة ملحة في توضيح معاني غريب القرآن ، وكشف الستار عن مجاز الكلمات القرآنية التي لا تستطيع المعاجم اللغوية أن تفي بإيضاحها ، وبيان المقصود منها .

ويعلق صاحب جمهرة أشعار العرب على هذه الشواهد بعد أن ساق هذه الأمثلة الكثيرة بقوله : (والأخبار في هذا لعمري تطول ، والشواهد تكثر غير أننا اقتصرنا من ذلك على ما حكيناه في كتابنا هذا) .

أول مصنف في غريب القرآن :

لعلنا إذا بحثنا مدققين عن أول مصنف يطالعنا في مضمار غريب القرآن نجده كتاب « مجاز القرآن » لأبي عبيدة معمر بن المثنى ذلك لأن السيوطي

في كتابه : « الوسائل في مسامرة الأوائل » ينص على أن أول من صنف في غريب القرآن هو : أبو عبيدة معمر بن المثنى ، « لأنه جاء بعد قتادة بن دعامة السدوسي المتوفي ١١٧ هـ وأبي عمرو بن العلاء المتوفي ١٥٤ هـ ، وهما لم يخلفا لنا أثرا مكتوبا وإنما كانت الأخبار تنقل عنهما مشافهة » .

وكتاب : مجاز القرآن » لأبـي عبيدة وإن كان يحمل اسم المجاز فهو في حقيقة أمره كتاب يدور حول الغريب من الكلمات القرآنية ، وتفسير هـذا الغريب بالشعر وكلام العرب .

وقد التبست كلمة « المجاز » هذه على المرحوم الاستاذ عبد العزيز البشري فقد ذهب الى أن كتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة يدور حول بيان الحقيقة من المجاز في القرآن الكريم .

وقد رد الاستاذ المرحوم أمين الخولى على الاستاذ البشري هذا الظن وبين « أن الحق الذى قاله القدماء ، وتنطق به القطعة المحفوظة بدار الكتب المصرية من كتاب أبي عبيدة نفسه — الحق أن هذا الكتاب في تفسير القرآن » .

وقد استدل أمين الخولى بقول ابن تيمية عنه في كتاب « الإيمان » إذ يقول : « أول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه ، ولكنه لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ، وانما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية »

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن الزميل المرحوم الدكتور حفنى شرف وقع في هذه الشبهة أيضا ولم يتنبه الى أن (المجاز) ليس هو ما يقابل الحقيقة بل ما يعبر به عن الآية أو لتوضيح الغريب وبيانه . قال الدكتور حفنى شرف : بصدد الحديث عن صاحب المجاز «كان كل همه معرفة الحقيقة والمجاز للألفاظ القرآنية وقرينها بما جاء مثيلا لها في الأدب العربي مما جعل كتابه يعتبر بحق النواة الأولى للبحوث البيانية » .

الدافع لتأليف (مجاز القرآن) :

ولا ننسى أن نذكر أن الدافع لتأليف هذا الكتاب سؤال وجه الى أبي عبيدة في مجلس الفضل بن الربيع حول غريب آية قرآنية ، يحدثنا ذلك ياقوت عن

أبي عبيدة فيقول : « ثم دخل رجل في زي الكتاب له هيئة فأجلسه الى جانبي وقال له : أتعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه ، فدعا له الرجل ، وقرظه لعقله هذا ، وقال لى : إني كنت اليك مشتاقا ، وقد سألت عن مسألة ، افتأذن لى أن أعرفك اياها فقلت : هات . قال : قال الله عز وجل : (طلعها كانه رؤوس الشياطين) الصافات /٦٥ وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف ، فقلت : إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم . أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلني والمشرف مضاجعـي ومسنونة زرق كأنيـاب أغـوال

وهم لم يرو الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أو عدوا به ، فاستحسن الفضل ذلك ، واستحسنه السائل ، وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتابا في القرآن في مثل هذا وأشباهه ، وما يحتاج اليه من علمه ، فلما رجعت الى البصرة عملت كتابي الذى سميته « المجاز » . وسألت عن الرجل السائل فقيل لي : « هو من كتاب الوزير وجلسائه وهو ابراهيم بن اسماعيل الكاتب » .

وبعد هذا الكتاب ظهرت كتب أخرى في الغريب أهمها كتاب :

تفسير غريب القرآن لابن قتيبة :

وقد بين ابن قتيبة في مقدمة كتابه أن كتابه : « مستنبط من كتب المفسرين وكتب أصحاب اللغة العالمين ، لم نخرج فيه عن مذاهبهم ، ولا تكلفنا في شئ منه بآرائنا غير معانيهم بعد اختيارنا في الحرف أولى الأقاويل في اللغة ، وأشبهها بقصـة الآيـة » .

ويعيب ابن قتيبة على قوم التمسوا منكر التأويل ، ومنحول التفسير ، فقد نحل قوم التفاسير المنحولة ، والروايات المنكورة ، وكان الأحرى بهم أن يعتمدوا على كلام العرب ليكون منارا لهم يهديهم ويرشدهم لأن القرآن كتاب كريم نزل بلسان عربي مبين .

يقول ابن قتيبة : « ونبذنا منكر التأويل ، ومنحول التفسير ، فقد نحل قوم ابن عباس أنه قال في قول الله عز وجل : (**(إذا الشمس كورت)**) التكوير

١ أنها غورت من قول الناس بالفارسية : كور بكرد .

وقال آخر في قوله : (**عينا فيها تسمى سلسبيلاً**) الإنسان /١٨ أراد سلني سبيلا اليها يا محمد .

وقال الآخر في قوله تعالى : (**أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت**) الغاشية / ١٧ . أن الابل : السجاب)

وقال الآخر في قوله : (**خذوا زينتكم عند كل مسجد**) الأعراف /٣١ أن الزينة : المشط . ثم يختم ابن قتيبة مقدمته بقوله : « مع أشياء لهذا كثيرة لا ندري : أمن جهة المفسرين لها وقع الغلط ؟ أمْ من جهة النقلة » .

أمثلة من الشواهد الشعرية في كتاب (تفسير الغريب) :

(**مأواكم النار هي مولاكم**) الحديد /١٥ أي هي أولى بكم . قال لبيد :

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافــة خلفها وأمامهــا

(**عطاء حسابا**) النبأ /٣٦ أي كثيرا . يقال : أعطيت فلانا عطاء حسابا وأحسبت فلانا أي أكثرت له . قال الشاعر :

ونقصي وليد الحي إن كان جائعا ونحسبه ان كان ليس بجائـــع

(**يوم يكشف عن ساق**) القلم /٤٢ أي عن شدة من الأمر . قال الشاعر :

في سنة قد كشفت عن ساقها حمراء تبرى اللحم عن عراقها

« الجبلة » : الخلق . يقال : جبل فلان على كذا ، وكذا أي خلق .

قال الشاعر :

والمــوت أعظـــم حـــادث ممـــا يمـر عـــلى الجبلـــة

على أن رواة شعر الشواهد في مجال غريب القرآن ومعانيه لم يأنفوا من الاستشهاد بسفهاء العرب وأجلافهم ، ولم يتورعوا عن رواية الأشعار : « التي فيها الخنا والفحش لأنهم يريدون منها الألفاظ ، وهي حروف طاهرة » ويروي لنا الرافعي في هذا الشأن خبرا طريفا يدل على قدسية الألفاظ وطهارة الكلمات .

قال : « روى أبو حاتم عن الجرمي أنه أتاه أبو عبيدة معمر بن المثنى الراوية بشيء من كتابه في تفسير غريب القرآن . قال الجرمي : فقلت له : ممن أخذت هذا يا أبا عبيدة فان هذا تفسير خلاف تفسير الفقهاء ؟ فقال : هذا تفسير الأعراب البوالين على أعقابهم فان شئت فخذ ، وإن شئت فذر » .

وقبل أن اختتم الحديث في شواهد غريب القرآن أود أن أشير الى رأي الدكتور طه حسين في كتابه : « الأدب الجاهلي » حول استدلال ابن عباس على الكلمات القرآنية الغريبة بالشعر العربي ، فقد أنكر طه هذه القصة ، واعتمد على انكاره هذه القصة بأنها قد وضعت في تكلف وتصنع لتثبت أن ألفاظ القرآن الكريم كلها مطابقة للفصيح من لغة العرب ، أو أن هذه القصة مدسوسة عليه « فقد كان له مولى وهو « عكرمة » يدس عليه كثيرا من الأخبار » .

والحق أنه لا داعي لهذا الانكار ، أو لهذه الاحتمالات والافتراضات فعبد الله ابن عباس يعلم أن الشعر ديوان العرب ، وهو المصدر الوحيد الذي يلجأ اليه في تفسير غريب القرآن ، وقد قال : الشعر ديوان العرب فاذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه .

تفسير الكشاف للزمخشري
مصدره ومنهجه من خلال الدراسات النحوية

تفسير الكشاف للزمخشري
مصادره ومنهجه من خلال الدراسات النحوية

الزمخشري : هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد ، ولد في رجب سنة سبع وتسعين وأربعمائة وأخذ الأدب عن كثير من مشايخ عصره ، وجاور بمكة .

وله من التصانيف : الكشاف في التفسير ، الفائق في غريب الحديث ، المتصل في النحو ، المستقصى في الأمثال . الخ . . . وتوفي يوم عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة[1] .

تفسير الكشاف :

تعددت كتب التفسير في مجالاتها المختلفة ، وتناولت كتاب الله شرحاً وايضاحاً للكشف عن أسراره ، وجلاء معانيه ، وبيان أحكامه ، لأنه كتاب هذه الأمة ، ومن حقها أن تتعرفه ، وتتذوق معانيه ، لتسير على هديه وتحيا في رحابه .

ولست في هذه العجالة أستطيع أن أوضح نشأة هذا العلم ، وتطوّره في العصور المختلفة ، فإن لذلك مجالاً آخر قد يتسع لهذا البحث .

بيد أني أحب أن أشير هنا الى أن كتاب الله ، وإن كان في الذروة العليا من البلاغة والفصاحة وأنه جاء بلغة العرب التي بها يتكلمون ، إلا أنه لا يستوي في المعرفة بجميع ما فيه كل العرب لأن فيه المتشابه « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم »[2] .

وقال بعض العرب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه ، ونحن العرب حقاً ، فقال : إن ربي

---

* نشر في مجلة الفكر الاسلامي – فبراير سنة ١٩٧٠ .

١ – بغية الدعاة : السيوطي ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ ، طبع عيسى الحلبي .
٢ – آل عمرآن ، آية : ٧ .

علمني فتعلمت »[1] فهذا الحديث يدل على أن كلام العرب نفسه لا يفهمه كل العرب ، فمن باب أولى أن يكون في كلام الله ما يعز فهمه أو بيانه على العقول ، وبخاصة هذه الكلمات التي لم تكد تعرفها العرب من قبل مثل : المسلم ، والمؤمن ، والمنافق ، والكافر « لأن الإسلام ، والايمان ، والكفر ، ظهر على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما كانت العرب تعرف الكافر كافر نعمة ، لا تعرفه من معنى الكفر بالله :

قال الشاعر : * ولا تحسبني كافراً لك نعمة * .

وقال آخر : * والكفر مخبثة لنفس المُنعم * .

وكانت تعرف المؤمن من جهة الأمان . قال الشاعر :

والمؤمنِ العائذات الطير يمسحها   ركبان مكة بين الغَيْل والسَّند

« أما المنافق فلا ذكر له في كلام العرب » .[2] .

وفي هذا الذي ذكرت أبلغ ردّ على ابن خلدون الذي ينص في مقدمته : « ان القرآن نزل بلغة العرب ، وعلى أساليب بلاغتهم ، فكلهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه »[3] .

لذلك كان علم التفسير النور الذي يضيء ما خفي على الأذهان ، وما غاب عن الإدراك غير أن المفسرين اختلفت مناهجهم ، وتعددت طبقاتهم ، ويذكر لنا الإمام السيوطي أن المفسرين أربعة أنواع .

١ – المفسرون من السلف والصحابة ، والتابعين ، وأتباع التابعين .

٢ – المفسرون من المتحدثين ، وهم الذين صنفوا التفاسير مورداً فيها أقوال الصحابة والتابعين بالأسناد .

٣ – المفسرون من علماء أهل السنة الذين ضموا الى التفسير التأويل ، والكلام على معاني القرآن ، واعرابه .

---

١ – المسائل : ابن قتيبة : الوجه : ٤– نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٢٠٩٦٧ .

٢ – كتاب الزينة : الشيخ أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي المتوفي عام ٣٢٢ هـ ، ج ١ ، ص ١٤٠– ١٤١ .

٣ – مقدمة ابن خلدون : ص ٣٦٧ ، المطبعة الأزهرية .

٤ – المفسرون من المبتدعة كالمعتزلة والشيعة ، وأضرابهم .

ثم قال السيوطي : « والذي يستحق أن يسمى بالمفسرين من هؤلاء القسم الأول ثم الثاني . وأما الثالث فؤوّله . . . ولم أستوف أهل القسم الرابع ، وإنما ذكرت منهم المشاهير كالزمخشري والرماني ، والجبائي وأشباههم »[1] .

فالزمخشري اذن من النوع الرابع الذي وصف بالابتداع ، ولا يعنيني في هذا المقام أن أناقش السيوطي في هذه التسمية التي نعت بها صاحبنا الزمخشري وإنما الذي يعنيني هو منهج الزمخشري من الوجهة النحوية فحسب ، هذا من ناحية ، ويعنيني من ناحية أخرى المصادر التي اعتمد عليها الزمخشري في تأليفه لهذا الكتاب ، من ناحية أخرى .

ولهذه المصادر قصة : خلاصتها أنني في اعدادي لرسالة الدكتوراه : « القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية » والتي تولت طبعها ونشرها دار المعارف تعرضت لهذه المصادر ، فرأيت أن الزمخشري ينقل من غيره دون إشارة إلى ذلك ، وأنه نقل نصوصاً كاملة بألفاظها وحروفها من كتاب التفسير الكبير للرماني ، ومع ذلك لم يشر اليه .

وقد حملني على هذا أن أحد أساتذتنا الفضلاء الذين يقومون بتدريس التفسير في جامعة الكويت أخذه الدهش والعجب أن جار الله الزمخشري يقع في مثل هذا الخطأ الفاحش فوعدته أن أكتب في هذا ، لأن الكتاب الذي احتوى هذا البحث ، وأعني به رسالتي للدكتوراه التي طبعتها دار المعارف قد لا تتاح له فرصة الانتشار الواسع الذي تتمتع به مجلة الفكر الاسلامي من أجل ذلك أحب أن ألخص ما كتبته في إيجاز .

دوافع تأليف الزمخشري لكتابه الكشاف :

من هذه الدوافع الإلحاح على الزمخشري من جانب مريديه في تأليف مصنف يروي غليلهم وينقع ظمأهم ، ويبرز لهم ما خفي عليهم من تأويل معنى ، أو بيان لفظ .

قال الزمخشري في مقدمة كتابه « كلما رجعوا إليّ في تفسير آية ، فأبرزت

١ – طبقات المفسرين : ص ٢ : جلال الدين السيوطي ، ط أوروبا .

لهم بعض الحقائق من الحجب ، أفاضوا في الاستحسان والإعجاب ، واستطيروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك حتى اجتمعوا عليّ مقترحين أن أملي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل من وجوه التأويل »[1] .

ولم يقدم الزمخشري على ما اقترحوا « فأبوا إلا المراجعة ، والاستشفاع بعظماء الدين ، وعلماء العدل والتوحيد »[2] .

وبعد هذا الإلحاح الطويل أملى عليهم مسألة في الفواتح ، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة ، وكان كلاماً مبسوطاً ، كثير السؤال والجواب ، طويل الذيول والأذناب[3] .

ولما صممتم على معاودة جوار الله ، والإناخة بحرم الله ، وحط الرجل بمكة ، إذا بالأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله الحسن علي بن حمزة ابن وهاس يطلب منه تفسير القرآن . قال الزمخشري : « لقد ضاقت على المستعصي الحيل ، وعيبت به العلل »[4] فأقدم على تأليف هذا الكتاب ، تحقيقاً لما طلب منه الأمير .

ولم ينس الزمخشري في مقدّمته أن يعين لنا المدة التي استغرقها تأليف هذا الكتاب فيقول : « ووفق الله وسدد ، ففرغ منه في مقدار خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة ، وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم ، وبركة أفيضت عليّ من بركات هذا الحرم المعظم »[5] .

وفي خاتمة مقدمته توسل الزمخشري إلى ربه قائلاً : « أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه سبباً ينجيني ، ونوراً على الصراط يسعى بين يدي ويميني ، ونعم المسئول »[6]

من أهم المصادر التي اعتمد عليها الزمخشري تفسير الرماني :

من شأن العلماء الذين يعنيهم أولاً وقبل كل شئ خدمة العلم أن يكونوا أمناء ، فإن الأمانة في العلم ليست أمراً سهلاً ، ولا أبالغ إذا قلت إنها رسالة ومن شأن أصحاب الرسالات أن يتصفوا بما يتصف به الأنبياء والرسل ، يؤدون الأمانة ،

---

١ – مقدمة الكشاف للزمخشري .
٢ – نفس المقدمة .
٣ – المقدمة نفسها .
٤ – مقدمة الزمخشرى في كشافه .
٥ – المقدمة نفسها .
٦ – المقدمة نفسها .

ويبلغون الرسالة ، شعارهم « وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى »[1] .

وصعب على نفسي أن جار الله الزمخشري لم يبين لنا المصادر التي اعتمد عليها في كتابه . فأبو حيان النحوي في كتابه العظيم البحر المحيط ، وضح في مقدمته المصادر التي انتفع بها ، وبذلك أدى للضمير حقه ، وللعلم أمانته ، فيقول مثلا : « فما كان في كتابي هذا من تفسير الزمخشري رحمه الله ، فأخبرني به أستاذنا العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الزبير قراءة مني عليه فيه » . ثم يقول : « وما كان في هذا الكتاب من تفسير ابن عطية فأخبرني به القاضي الإمام أبو علي الحسين بن عبد العزيز بن أبي الأحوص القرشي قراءة مني عليه لبعضه »[2] .

وعلى هذا النهج يسير أبو حيان مبيناً المصادر التي اعتمد عليها سواء كانت في التفسير أو في النحو أو في القراءة أو في اللغة ، ولكنك حينما تقرأ مقدّمة الزمخشري فلا تجد شيئاً من ذلك اللهم إلا الإشادة بمن سلك في دروب علم التفسير الوعرة التي لا يتحمل السير فيها إلا أولو العزم من العلماء : يطالعك في مقدّمة كتابه بهذه العبارات الرشيقة الأخاذة « فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوي والأحكام ، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار ، وإن كان من ابن القرية أحفظ ، والواعظ ، وإن كان من الحسن البصري أوعظ ، والنحوي ، وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوي وان علك اللغات بقوة لحييه ، لا يتصدّى منهم أحد لسلوك الطرائق ، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني ، وعلم البيان . . . إلى أن يقول : بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ ، جامعاً بين أمرين تحقيق وحفظ . إلى أن يقول : فارساً في علم الأعراب . . . وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها ، مشتعل القريحة وقّادها الخ »[3] .

وتنتهي المقدمة ، ولم يحاول أن يشير الى مرجع واحد ، يكون قد انتفع به

---

١ – الليل : اية ١٩ ، ٢٠ .

٢ – مقدمة البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي .

٣ – مقدمة الزمخشري لكشافه .

لعل قائلاً يقول : قد تكون هذه عادة العصر ، وأن العلماء في هذا العهد كان يأخذ بعضهم عن بعض ، ولا يرون حرجاً في عدم الإشارة إلى ذلك ، فأقول له : هذه عادة الزمخشري وحده ، فقد سبقه الكثير من المؤلفين في مجالات التفسير ، والقراءات ، والنحو ، ومع ذلك كان الكثير منهم يحرص على ان يسند كل رأي الى صاحبه ، وكل قول إلى من صدر عنه ، انظر مثلاً : إلى أبي علي الفارسي تجده في كتابه الحجة في القـراءات السبع ، يبين أنه « لم يكن أول نحوي شـرح في الاحتجاج لهذه القراءات فقد سبقه الى ذلك أبو بكر محمد ابن السري في تفسير صدر من ذلك في كتاب كان قد ابتدأ باملائه . . . الخ[1] .

على أية حال كانت ، فإن من غريب المصادفات أنني قرأت في كتاب « النجوم الزاهرة » أن « للرماني كتاب التفسير الكبير ، وهو كثير الفوائد إلا أنه صرح فيه بالاعتزال ، وسلك الزمخشري سبيله وزاد عليه »[2] .

ولفتت هذه العبارة الأخيرة نظري ، وكانت مفتاح السر الذي فتح باب هذا البحث على مصراعيه أمامي ، ذلك لأني أردت أن أعرف درجة تأثر الزمخشري بالرماني ، فذهبت أبحث في فهارس المخطوطات عن تفسير الرماني ، وأخيرا عثرت على تفسير جزء « عمّ » للرماني في مكتبة العلامة أحمد تيمور .

ومن حق القارئ قبل أن أضع له النقاط على الحروف في هذا المجال أن يعرف في إيجاز من هو الرماني صاحب التفسير الكبير الذي سلك الزمخشري سبيله فأبادر على الفور فأقول :

الرمّاني: هو علي عيسى بن علي بن عبد الحسن أبو الحسن الرمّاني ، كان إماماً في العربية علاّمة في الأدب ، في طبقة الفارسي ، والسيرافي معتزلياً .

ولد سنة ست وسبعين ومائتين ، وأخذ عن الزجاج ، وابن السراج ، وابن دريد . قال السيوطي : لم ير مثله قط علماً بالنحو ، وغزارة بالكلام ، وبصراً بالمقالات ، وكان يمزج النحو بالمنطق حتى قال الفارسي : إن كان النحو ما يقوله

---

١ – مقدمة الحجة لأبي علي الفارسي : نسخة مصورة رقم ٤٦٣– قراءات – دار الكتب المصريـة .
٢ – النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٦٨ .

الرماني ، فليس معنا منه شيء ، وإن كان النحو ما نقوله نحن ، فليس معه منه شيء » .

ومات الرماني سنة أربع وثمانين وثلاثمائة[1] .

تقارب النصوص بين التفسيرين :

قلت : إن مكتبة تيمور تضم جزء « عمّ » من تفسير الرماني الكبير ، ففي فهرس المكتبة التيمورية ، الجزء الأول ، ص ٧٦ ، جاء ما نصه : « تفسير جزء عم » تأليف العلامة أبي الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي المتوفّى عام ٣٨٤ هـ ، ليس له خطبة نسخ سنة ١٠٩٦ هـ » ، ورقم المخطوط في الفهرس ٢٠١ – تفسير .

بدأت أقارن نصوص هذا التفسير بنصوص الكشاف للزمخشري فوضحت لي الحقيقة سافرة مشرقة تؤكد أن الزمخشري سطا على هذا التفسير ، ونسب الكثر منه إلى نفسه حيث لم يصرح بالمصدر الذي نقل عنه .

وقبل أن أصدر هذا التأكيد قمت بعدة فروض ألتمس فيها براءة الزمخشري من التهمة التي وجهتها اليه ، ولكن للأسف تبددت الفروض ، وبقيت التهمة قائمة إلى أن يهيئ الله من رجالات العلم من يقوم بمواصلة هذا البحث ، فيبرئ ساحة جار الله مما نسب اليه ، وحينئذ يشفي نفسي من حرج الاتهام ، تقديراً لجار الله، وتكريماً لهذا التفسير الذي تألق نجم الزمخشري في سماء المعرفة بسببه مما جعله يقول عنه :

إن التفاسير في الدنيا بلا عـــدد
وليس فيها لعمري مثل كشافي
إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءتــة
فالجهل كالداء ، والكشاف كالشافي[2]

فمن هذه الفروض التي قمت بها الشك في نسبة تفسير جزء عمّ الذي تضمه مكتبة تيمور إلى الرماني ، وقلت لعله لرماني آخر ، تأخر زمنه عن زمن الزمخشري فنقل من الكشاف من نقل ونسبه إلى نفسه ، ورجعت إلى كتب الطبقات فوجدت

١– بغية الوعاة للسيوطي ، ج ٢ ، ص ١٨٠ ، معجم الأدباء لياقوت ، ج ١٤ ، ص ٧٥ .
٢ – بغية الوعاة : ج ٢ ، ص ١٨٠ .

أنه اشتهر ثلاثة من النحاة بهذا اللقب : أحد هؤلاء : الرماني المشهور صاحب التفسير الكبير الذي تحدثنا عنه . والثاني : هو : أحمد بن علي ابن محمد بن علي ابن محمد أبو عبد الله الرماني المعروف بابن الشرابي توفي سنة خمس عشرة وأربعمائة[1]

والثالث هو : على بن عبدالله بن محمد بن على بن رمّان التونسي أخذ عنه ابن عصفور ، ولم يذكر السيوطي في بغيته سنة وفاته ، غير أنه من الممكن معرفة عصره الذي عاش فيه بمعرفة ميلاد ابن عصفور أو موته ، أمّا ميلاد ابن عصفور ، فقد كان سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، وأما تاريخ وفاته فقد ذكر أنه توفي سنة ثلاث ، وقيل تسع وستين وستمائة[2] .

ومعنى ذلك أن الرماني الذي أخذ عنه ابن عصفور من رجال القرن السابع .

وإذا تبين لنا أن الزمخشري توفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، فإن الرماني الثاني سابق للزمخشري غير أنه لم تكن له مؤلفات في القرآن ، أو في التفسير أو في القراءات أو في النحو ، على حين نصّ على أن الرمّاني الأسبق علي بن عيسى له تفسير كبير في القرآن لذلك ننفي نسبة تفسير جزء عمَّ لهذا الرماني السابق المعروف بابن الشرابي .

وأمّا الرماني الثالث ، فليس له من المؤلفات القرآنية كذلك ما يجعلنا ننسب هذا التفسير اليه .

واذا انتفى ان يكون تفسير جزء عمّ لأحد من هذين الرجلين ، فأكبر الظن أنه للرماني الأول علي بن عيسى ، وأن الزمخشري اطلع عليه ، وأفاد منه ، بل نقل منه نصوصا بأسرها وكان واجب الأمانة العلمية يقضي بأن يشير إلى ذلك في كتابه .

ويعجبني في هذا المقام تعليق السيوطي على الشيخ بهاء الدين بن النحاس حينما ذكر السيوطي في كتابه « الأشباه والنظائر » أن الفروع هي التي تحتاج إلى العلامات وأن الأصول لا تحتاج إلى علامة مستدلاً بنص نقله الشيخ بهاء الدين في التعليقة » قال : « وجدت ذلك بخط غالي بن عثمان بن جني عن أبيه قال : بدليل أنك

---

١ – بغية الوعاة ، ص ١٥١ .

٢ – بغية الوعاة ، ص ٣٥٧ .

تقول في المذكر قائم وإذا أردت التأنيث ، قلت : قائمة ، فجئت بالعلامة عند المؤنث ، ولم تأت للمذكر بعلامة . وتقول: رأيت رجلاً فلا تحتاج إلى العلامة ، وإن أردت التعريف أدخلت العلامة في الفرع ، الذي هو التعريف فقلت : الرجل ولم تدخلها في التنكير ، وإذا أردت بالفعل المضارع الاستقبال أدخلت عليه السين لتدل بها على استقباله ، وذلك يدل على أن أصله موضوع للحال ، ولو كان الاستقبال فيه أصلاً لما احتاج إلى علامة » .

قال السيوطي : « وانظر الى الشيخ بهاء الدين وأمانته كيف وجد فائدة بخط ولد ابن جني نقلها عن أبيه ، ولم تسطر في كتاب فنقلها عنه ، ولم يستجز ذكرها من غير عزو اليه لا كالسارق الذي أغار على تصانيفي التي أقمت في تتبعها سنين ، وهي :

كتاب المعجزات الكبير –كتاب الخصائص الصعرى ، وغير ذلك ، فسرقها ، وضمّها ، وغيرها مما سرقه من كتب الخضري ، والسخاوي في مجموع ، وادّعاه لنفسه . . . وليس هذا من أداء الأمانة في العلم »[1] .

وبعد ، فما الدليل على أن الزمخشري سطا على تفسير الرماني ، وأخذ منه ما أخذ دون عزو أو إشارة إلى من أخذ عنه .

دليلي على ذلك هذه الأمثلة ، وهي غيْضٌ من غَيْض ، وقطرة من سيل .

١– مالك يوم الدين :

قال الرماني : « فإن قلت : ما هذه الاضافة ، قلت هي إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على طريق الاتساع يجري مجرى المفعول ، كقولهم : يا سارق الليلة أهل الدار ، والمعنى على الظرفية ومعناه : مالك الأمر كله يوم الدين ، كقوله : « لمن الملك اليوم » .

فإن قلت : فإضافة الفاعل إضافة غير حقيقية ، فلا تكون معطية معنى التعريف فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة ، قلت : إنما تكون غير حقيقية إذا

---

١ – الأشباه والنظائر للسيوطي ، جـ ١ ، ص ٢٦٤–٢٦٥ .

أريد باسم الفاعل الحال والاستقبال . فكان في تقدير الانفصال ، كقولك : مالك الساعة الآن ، أو غداً . فأمّا إذا قصد معنى الماضي كقولك : هو مالك عبيده أمس ، أو زمان مستمر كقولك : زيد مالك العبيد كانت الإضافة حقيقية كقولك : مولى العبيد ، وهذا هو المعنى في مالك يوم الدين » [1].

والنص نفسه حرفياً في تفسير الكشاف . [2]

٢- إياك نعبد :

قال الرماني : « إياه ضمير منفصل للمنصوب ، واللواحق التي تلحقه من الكاف ، والهاء ، والياء في قولك : إياك ، وإيّاه ، وإياى لبيان الخطاب والغيبة والتكلم ، ولا محل لها من الاعراب ، كما لا محل للكاف في أرأيتك ، وليست بأسماء مضمرة ، وهو مذهب الأخفش وعليه المحققون .

وأما ما حكاه الخليل عن بعض العرب : « إذا بلغ الرجل الستين ، فإيّاه ، وإيا الشواب فشيءٌ شاذ لا يعوّل عليه » [3].

ولما رجعت الى تفسير الكشاف في هذا الموضع رأيت الرمخشري ينقل النص بعينه ، ولم يحاول أن يغير فيه أو يبدّل [4].

٣- على أن هناك بعض النصوص أخذها الزمخشري عن الرماني ، وحاول أن يغير فيها بالتقديم والتأخير والحذف والزيادة . انظر مثلاً : قوله تعالى : « إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ، ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا »[5] . وقوله تعالى « والليل إذا يسر »[6] . تجد أن النصوص في التفسيرين متقاربة ، وأن الزمخشري لم يزد شيئاً غير المساس بالنص من حيث

---

١ - تفسير جزء عم الرماني : ورقة ١٢ .
٢ - تفسير الكشاف ، ج ١ ، ص ٦ .
٣ - تفسير جزء عم للرماني : ورقة ١٣ .
٤ - تفسير الكشاف ، ج ١ ، ص ١١ .
٥ - عم : آية ٤٠ .
٦ - الفجر آية : ٤ . انظر في الموضعين : تفسير جزء عم للرماني ورقة ٢٨ ، والكشاف ج ٢ ، ص ٤٥٠ ، وجزء عم للرماني ورقة ٨٢ ، والكشاف ج ٢ ، ص ٤٦٩ .

التقديم والتأخير ، والحذف .

وبهذه المقارنة التي قمت بها في التفسيرين أصدرت حكمي في حـرَج ، وبينت أن الزمخشري من هؤلاء الذين يعنيهم السيوطي في نصه السابق ، من هؤلاء الذين لم يؤدوا أمانة العلم . ولكن هل انتهت القضية عند هـذا الحد ؟ لا أدعي لنفسي أن حكمي لا يقبل الاستئناف فما أنا إلاَّ حامل مصباح لمـن يسير في الطريق ، والحقيقة بنت البحث ، فإلى هؤلاء الباحثين أقدم شكري العميق لمن يسير إلى نهاية المطاف ، ويبدأ من حيث انتهيت لوضع النقاط على الحروف في هذه القضية .

ووفاء بحق العلم ، وأداء لأمانته ، أحب أن أضع بين يدي الباحثين هـذا الخيط الجديد الذى لم يتيسر لي في أثناء عرضي لهذا الموضوع من كتابي « القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية » ، وذلك لربط ما قلت بما سيقولون .

لم أجد في الفهارس المخطوطة في دار الكتب ، وفي مخطوطات الجامعة العربية جزءاً من تفسير الرماني غير الجزء السالف الذكر الذي تضمه مكتبة تيمور ، غير أني لم أقتنع بهذا فسألت المختصين في معهد المخطوطات بالجامعة العربية عن تفسير الرماني ، فذكروا لى أن هناك جزءاً من هذا التفسير لم يلحق بعد بالفهارس المخطوطة المطبوعة ، وقد صور من مكتبة المسجد الأقصى ، وقد كتب على الورقة الأولى من هذا المخطوط ما نصه :

المكتبة : المسجد الأقصى –
رقم المخطوط فيها : ٢٩
اسم الكتـاب : تفسير القرآن ، الجزء الثاني عشر .
اسم المـؤلـف : علي بن عيسى الرماني (هكذا كتب عليه بخط حديث)
تاريخ النسـخ : القرن السادس – خط نسخي نفيس مشكول .
عدد الأوراق : ١٥٠
الملاحظـات : يبتدئ بتفسير قوله تعالى « يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان ، وما هـو بميت ، ومـن ورائه عذاب غليظ » . من سورة ابراهيم .

وحينما وضَعْتُ هذا « الفيلم » تحت « المكبر » ، وجدت أن هذا التفسير يسير على نمط الأسئلة والأجوبة ، تراه مثلاً يقول في قوله تعالى « يتجرعه ولا يكاد يسيغه » .

« يقال : ما التجرع ؟ الجواب تناول المشروبات جرعة جرعة . . .
ويقال : ما الإساغة ؟ والجواب إجراء الشراب في الحلق على تقبل النفس .
ويقال : ما الموت ؟ والجواب : عرض يضاد الادراك في البنية الحيوانية »[1] الـخ . . . .

وعلى هذه الطريقة يسير تفسيره ، أغلب الظن أنها طريقة حديثة في التفسير نسبتها إلى رجل من رجالات القرن الرابع أمر غير مقبول ، لأن المفسرين السابقين ، أو المعاصرين له ، لم ينهجوا هذا المنهج في تفسيرهم هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن الرماني اشتهر بين علماء عصره بالأسلوب الغامض حتى قال الفارس عنه « إن كان النحو ما يقوله الرماني ، فليس معنا منه شيءٌ ، وإن كان النحو ما نقوله نحن ، فليس معه منه شيءٌ »[2] .

فنسبة هذا الجزء إلى الرماني أمر مشكوك فيه ، وبخاصة ، فان نسبة هذا الكتاب إلى الرماني على الصفحة الأولى منه مكتوب بخط حديث كما هو واضح في المخطوطة المصورة .

ومن حسن الحظ أني حينما اطلعت على فهارس المكتبات الأوروبية وجدت في فهرس المكتبة الأهلية بباريس ، ص ٢٨٧ أن هذه المكتبة تضم جزءاً من تفسير الرماني ، وقد اتصلت ببعض العلماء هناك لتصوير هذا الجزء وارساله ، لإلقاء الضوء الكاشف على هذه القضية ، وإننا لمنتظرون .

وحتى الآن ما زالت نفسي مطمئنة إلى أن تفسير جزء عمّ للرماني نسبته الته صحيحة لأن العلامة أحمد تيمور كان مولعاً بجمع هذه الكتب النفيسة ، وكان يعلق على كثير منها فوجوده في خزانته ، ووجود النسبة إلى الرماني على الصفحة الأولى من هذا المخطوط يشعرنا بأن هذا الجزء أصحّ نسبة إلى الرماني من

---

١ – انظر ورقة ١ من هذا الجزء .
٢ – البغية : ج ٢ ، ص ١٨٠ .

الجزء الآخر الذي صوره معهد المخطوطات على أية حال ، ما زلت أقـول : إن هذه القضية مفتوحة لمن يدلى بدلوه بين الدلاء خدمة للعلم ، وايماناً بالمعرفة ، وإرضاء للضمير .

* * *

منهج الزمخشري في الدراسة النحوية :

١- النظر من خلال الدراسة النحوية إلى الذوق الأدبي ، والأسلوب البلاغي بغض النظر عن تقديرات النحاة .

يقول في قوله تعالى « هدى للمتقين » « ومحل هدى للمتقين الرفع لأنـه خبر مبتدأ محذوف أو خبر مع لا ريب فيه لذلك » أو مبتدأ إذا جعل الظرف المقدم خبراً عنه ويجوز أن ينتصب على الحال ، والعامل فيه معنى الإشارة أو الظرف .

ثم قال : « والذي هو أرسخ عرفاً في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحاً ، وإن يقال : إن قوله : الم جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها ، وذلك الكتاب جملة ثانية ، ولا ريب فيه ثالثة ، وهدى للمتقين رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم ، جئ بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق وذلك لمجيئها متآخية ، آخذاً بعضها بعنق بعض » [1].

٢- يجري في معظم تناوله للنحو القرآني مجرى مذهب البصريين ، ففي الآية الكريمة : « وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا » [2] يصف مـذهب البصريين فيها بالسداد ، ولا يكتفي بذلك ، بل يشيد بكتاب سيبويه ، ولا يقنع بهذه الإشادة ، بل يجب الجثو بين يدي الناظر في كتاب سيبويه[3].

---

١ - البقرة : آية : ٢ .
٢ - الكشاف ، ج ١ ، ص ٢٩ .
٣ - الكشاف ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

٣- ومن منهجه الاعتماد على القراءة لتصحيح الوجه الإعرابي ، فيقول في قوله تعالى « فهي كالحجارة أو أشد قسوة »[1] أشد معطوف على الكاف إما على معنى أو مثل أشد قسوة ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف اليه مقامه .

وتعضده قراءة الأعمش بنصب الدال عطفاً على الحجارة »[2].

٤- ومن منهجه التعرض للغات العرب ، ففي قوله تعالى : « يوم يأت »[3] يقول : « يوم يأت بغير ياء ، ونحوه قولهم : لا أدر ، حكاه الخليل وسيبويه ، وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل »[4] .

٥- ولا يعتد ببعض القراءات الصحيحة كقراءة ابن عامر أحد القراء السبعة حيث وقف منها الزمخشري موقف الناقد ، وذلك في قراءة قوله تعالى : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم »[5] حيث قرأ ابن عامر « قتل أوءدهم شركائهم » برفع القتل ، ونصب الأولاد ، وجر الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء ، والفصل بينهما في غير ظرف . وأرجع الزمخشري خطأ ابن عامر إلى رسم المصحف حيث قال : « والذي حمله على ذلك أنه رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوباً بالياء »[6].

وقد حمل أبو حيان الأندلسي على الزمخشري حملة عنيفة حيث قال عنه : « وأعجب لعجمي ضعيف في النحو يردّ على عربي صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً ، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم وفهمهم وديانتهم »[7] .

---

١ - البقرة : آية : ٧٤ .
٢ - الكشاف ، ج ١ ، ص ١١٦ .
٣ - هود : ١٠٥ .
٤ - الكشاف ، ج ٢ ، ص ٣٣٥ .
٥ - الأنعام : ١٣٨ .
٦ - البحر المحيط ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ : أبو حيان الأندلسي .
٧ - المرجع السابق والصفحة .

٦- ومن أخطاء الزمخشري المنهجية : ظنه أن القراءة مرجعها إلى اللغة والنحو لا إلى السند والرواية . يقول في قوله تعالى : « هنالك الولاية لله الحق »[١] وقرئ الحق بالرفع ، والجر صفة للولاية ، ولله .

وقرأ أبو عمرو بن عبيد بالنصب على التأكيد كقولك : هذا عبد الله الحق ، لا الباطل ، وهي قراءة حسنة فصيحة ، وكان عمرو بن عبيد من أفصح الناس وأفصحهم »[٢].

قال أحمد بن المنير : يردّ عليه زعمه هذا ، فإنه يوهم أن القراءة موكولة إلى رأي الفصحاء واجتهاد البلغاء ، فتتفاوت في الفصاحة لتفاوتهم فيها ، وهذا منكر شنيع .

والحق لا يجوز لأحد أن يقرأ إلاّ بما سمعه فوعاه متصلاً[٣].

* * *

وبعد ، فإن الزمخشري وكتابه الكشاف في حاجة إلى دراسة واسعة لا يتسع هذا البحث للإفاضة فيها ، وقد ضمّ كتابي « القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية » بعضاً من هده الدراسة .

أما ما ذكرته هنا ، فهو غيض من فيض ، ويكفي من القلادة في هذا المقام ما أحاط بالعنق .

أرجو الله أن يجعل الحق رائدنا ، والعلم وحده غايتنا ، والعمل من أجل كتابه الكريم هدفنا الأسمى ، إنه نعم المولى ، ونعم النصير .

١- الكهف : ٤٤ .

٢- الكشاف ، وج ٢ ، ص ٥٦٦ .

٣- الانتصاف ، ج ٥ ، ص ٥٦٦ (هامش الكشاف) .



نشر وتوزيع

الكويت ص.ب: ٢١٨٥٧ - الصفاة - تلفون: ٤٣٧٤٢٣

تلكس: ٢٤٣٥ تكنو - كويت - برقيا: الدورادو



المطبعة العصرية - بالكويت